معاتبات الشريفين

المرتضى والرضي

للدكتور
عبد الرحمن هيبة
الأستاذ المساعد بكلية اللغة
العربية بالمنصورة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخوة النسب وشيجة عقدها مبرم، وحبلها وثيق، وهى داعبة مودة وألفة، وباعثة تعاطف وتسامح، إذ تسرى فى شرايين الأشقاء دماء واحدة يظللها حنو رءوم، وود ودود. هذه الأخوة وارفة الظلال، دانية الجنى، لا يلحقها انقطاع، ولا يصيب شجرتها تصوح.

وقد تزجى أحداث الحياة إلى سماء الأخوة سحائب جفوة عارضة، لكنها فى حياة الأسوياء - سحائب صيف، سرعان ما تنقشع أمام وشائج الأخوة؛ إذ يعمد المجفو إلى المعاتبة يستل بها موجدة الجافى، ويرده إلى سابق عهد الصفاء، مذكرا إياه روابط الأخوة، وما تتطلبه من لين الجانب، والصفح والتسامح، والإغضاء عن الهفوات. والشعراء أقدر الناس على التعبير عن نوازع النفس، والولوج إلى مستكنات القلوب والتلطف فى اجتثاث سخائمها.

والشريفان المرتضى والرضى غصنا شجرة سامقة تضرب بجذورها فى أغوار الفضائل الإنسانية الرفيعة، وقد أظلهما بيت كريم تؤرجه نسائم الود والصفاء، وتظلله علائق أسرية نقية، طبعت على صفحات قلوب أفراد هذا البيت الكريم، فأثمرت ودا صادقا يحمله كلا الأخوين للآخر.

وقد تجلى هذا الود فى مظاهر متعددة:

أولها: قصائد التهنئة والتعزية الرقيقة التى كان «الشريف الرضى» يزجيها إلى «المرتضى» من حين إلى آخر، فى مناسبات جمة، وهى قصائد تشف عن قلب معمور بالود الصادق، فهاهوذا يقول من قصيدة دالية يمدح بها أخاه ويهنئه بمولودة جاءته(١):

(١) ديوان الشريف الرضى ١/٣١٥ ط دار صادر بيروت.

يا ابن الحسين وما دعواى كاذبة إذا نسبتك فى الشم المناجيد
الطاعنين من الأعداء ما لحقوا والخيل تلطم هامات الصناديد
معودون من الأيام مرتبة لا يستطيل إليها كل صنديد
يأبون أن يلتبس الإظلام ربعهم ليلا ، وما عذبوا طرفا بتسهيد
ويغضبون إذا عاطيتهم هـمما مرفهات ، وهما غير مكدود
هم الضيوف لأرض غير آهلة من الأنيس ، وورد غير مورود
فأنت أبسطهم باعا ، إذا بسطوا أيديهم لوعيد ، أو لموعود
الآن جاءت خيول السعد راكضة تجرى بيوم مضىء الوجه مجدود
بمولد صقـــل الآباء جليته فطوق المجد أعناق المواليد
مولودة نهب الراءون بهجتها لثما ، وعانقتها فى ثوب محسود

فهو يتخذ هذه المناسبة تكأة للفخر بالبيت الذى ينتميان إليه ، والفخر بأخيه « المرتضى » ، فخرا يموج بالإعجاب به ، والإفصاح عما يكنه قلبه له من آيات الود المكين وتلك ظاهرة جلية فى ديوان الرضى(١) .

وقد عمد كذلك إلى تعزية أخيه « المرتضى » عن ابنة له توفيت ، فأنشد بائية يقول فيها(٢) :

يا غصنا طال وفرعا طابا لما ذوى أودعته الترابا
أراب من يومك ما أرابا لازلت أستسقى لك السحابا
كل أغـــر يدق الذهابا مجررا على الربى أهدابا(٣)
يبقى بأجواز الثرى أندابا وينثنى مجـــولا جوابا

وهى قصيدة ناطقة بجوى متأجج بين جوانح « الرضى » ؛ لإنشاب الموت مخالبه فى ابنة أخيه « المرتضى » .

---

(١) انظر – على سبيل المثال لا الحصر – ديوانه ١/٤٦٥–٤٦٧، ٦١٠–٦١٣

(٢) ذاته ١/١٥٦ .

(٣) يدق : يعطر . الذهاب : المطر الغزير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وها هوذا يعزى أخاه « المرتضى » أيضا عن مولودة أخرى توفيت له ، فيقول من بائية أخرى(١) :

صبرنا فغصصنا الزمان بريقه ... على أن للأيام فينا مضاربا
ولم نطرح الأسلاب يوما لنكبة ... وإن جذب المقدار منا المجاذبا
ألا إن هذا الناكل الحسب الذى ... به ثكل المجد التليد المناقبا
رمى فى يمين الدهر درة سؤدد ... فأحج بها يحنو عليها الرواجبا(٢)
وقد شن فيها حادث الموت غارة ... ثنتنا ولم تطلع إلينا كتائبا
فلا تحسبن رزء الصغائر هينا
فإن وجى الأخفاف ينضى الغواربا

ومن يتأمل هذه البائية يدرك أنها نفثة مصدور روع فى عزيز لديه ، والبيت الأخير من الأبيات المذكورة شاهد صدق على ذلك ، والرضى فى البائيتين يعزى نفسه عن ابنتى أخيه قبل أن يعزى عنهما أباهما . وهذه دلائل تعاطف وتراحم ربط بين قلبى الشقيقين ، فبات الخطب النازل بأحدهما يروع الآخر ويدمى قلبه.

ثانيها : وجدت « المرتضى » يجيب أخاه « الرضى » عن قصيدة مدحه بها، مطلعها(٣) :

طريق المعالى عامر لى قويم ... وقلبى بكشف المعضلات متيم
ولى همة لا تحمل الضيم مرة ... عزائمها فى الخطب جيش عرمرم

---

(١) ديوان الشريف الرضى ١ / ١٥٧ .
(٢) أحج بها : أخلق بهما . يحنو : يلوى . الرواجب جمع راجبة : مفاصل أصول الأصابع ، أو هى قصب الأصابع .
(٣) ديوان الشريف المرتضى ٣ / ١٩٤ - ١٩٥ تحقيق رشيد الصفار ط عيسى الحلبى ١٩٥٨ م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفيها يقول :

أبا حسن لاغاض مافاض بيننا ... من الصفو ما تصبو إلى الماء حوم
تضاءل ما نسمو به من ولادة ... بمحض وداد لم يشبه تجرم
أطال لسانى فى ثنائك أنه ... ثناء على ما حيلت ينظلم
وقدمت قولا من مديحى مصدقا ... طراز افتخارى منه بالحسن يعلم
وهذا جواب عنه لما استطعته ... فبحرى منه الآن ملآن مفعم .

فهو ينبىء عن قلب معمور بالود النقى ، الذى لم تنل من صفائه تقلبات نفسية عارضة ، وهو جد متشبث بهذا الود ، لذا جأر إلى الله بالدعاء له بالدوام ، تلمس ذلك من إعتداد الهواء الخارج مع الألفات المتعددة فى قوله : « لاغاض مافاض بيننا » ، مما يفصح عن أخ شفيق على أخيه ، ثم جاء قوله : « ما تصبو إلى الماء حوم » دليلا على رغبة عارمة فى تواصل الود مابقى فى جسد كليهما عرق ينبض بالحياة ، فإن الطير دائمة الحومان حول الماء تجد فيه حياتها ، وكأنى بالمرتضى يريد أن يقول : فى تجدد الصفاء بيننا حياة لكلينا ، وفى الجفاء موت محقق لقلبين تآلفا وتعانقا حتى عز على أحداث الزمان أن تنال من قوة عرى المودة بينهما ، هذا الود جاوز حد مابين الأشقاء ، وهو ود خالص لم يكدر صفاءه مكدر ، وقلب « المرتضى » منه ملآن مفعم .

وفى الأبيات تلطف بين ، ومحوالة من « المرتضى » لاستمالة أخيه إليه ، فهاهو ذا يناديه بكنيته « أبا حسن » ، ثم يخبر فى البيتين الثالث والرابع أن إطراء « الرضى » إطراء لنفسه هو أيضا ؛ فهما روح واحد فى جسدين اثنين .

كذلك خبر عن عمق المودة واتساع مداها ، نلمس ذلك من إيحاءات الفعل « فاض » فى قوله « ما فاض بيننا » ، ثم ما جاء فى قوله :

تضاءل ما نسمو به من ولادة ... بمحض وداد لم يشبه تجرم

ثم عجز البيت الأخير : « فبحرى منه الآن ملآن مفعم » .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكنا نستشف من قوله: «الآن» – في البيت الأخير – أن القصيدة قيلت بسبب زوال الجفوة العارضة في حيـــاة الشقيقين، وأن «المرتضى» بهذه القصيدة يخبر عن عودة مياه الود إلى مجاريها، على ما كانت عليه من صفاء وتجدد، وقد جاء ديوان «الرضى» خلوا من القصيدة التي مدح بها أخاه المرتضى، ولو وقفنا عليها لأعاننا ذلك على تجلية الموقف.

وقد استرعت قصيدة «المرتضى» هذه انتباه الدكتور «الحلو» فعقب عليها قائلا(١): «وقد بحثت عن قصيدة الرضى هذه (أي التي مدح بها أخاه المرتضى فكانت سبب إنشاد المرتضى ميميته التي عرضت لها آنفا) فلم أجدها في ديوانه، فهل احتواها الرضى لحذفها؟ إن في الزيادات (أي التي جمعها الدكتور الحلو مما ليس في ديوان الرضى) بيتا يقول:

أخاف وأستبقي الحياء وأكتم ... وبين ضلوعي منك هم مخيم

وهو على وزن قصيدة «المرتضى»، فهل كان هذا البيت مطلع قصيدته إليه؟ إن البيت يحمل هما وعتابا وليست كذلك القصيدة التي أخبر المرتضى أن أخاه قالها مدحا فيه، فما الذي جعل الرضى ينفي هـــذه القصيدة من ديوانه؟ علم ذلك عنده».

وأنا أرفض أن هذا البيت الذي أورده الدكتور «الحلو» مطلع قصيدة «الرضى» إلى «المرتضى»، لاختلاف المنزع النفسي فيهما، وما يقال مثل هذا في موقف يحرص فيه كلا الشقيقين على رأب الصدع، وأراه صدر قصيدة أخرى جاءت حصاد تلك الجفوة إبان تصاعد سحبها في سماء الشقيقين، أو أنها موجهة إلى غير «المرتضى».

وقصيدة مدح بها «الرضى» أخاه تطييبا لخاطره، مما دفعه إلى إنشاد هذه

---

(١) الشريف الرضى – حياته دراسة شعره د/ عبد الفتاح الحلو ١/٦٦ – ط دار هجر ١٩٨٦م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الميمية الرقيقة جوابا عنها ، لا يعقل أن يحتويها « الرضي » ويحذفها من ديوانه ولعلها ضاعت مع ما ضاع من شعره الرضي ، الذي خلا منه ديوانه ؛ وهذه حقيقة لم تغب عن الدكتور « الحلو » ، إذ أشار إلى وجود شعر للرضي لم تضمه نسخ ديوانه التي عثر عليها ، مما دفعه إلى محاولة التصدي للبحث عن زيادات شعر الرضي(١) :

وتجدر الإشارة بعد هذا كله إلى أن قصيدة « المرتضى » الميمية في مدح « الرضي » جاءت آية ناطقة بعمق أواصر الود بين الشريفين .

ثالثها : ما كان من « المرتضى » يوم موت أخيه « الرضي » ، إذ عجز عن مقاومة الجزع ، ولم يستطع - وهو العالم الدين الوقور - أن تقع عينه على أخيه مشيا إلى مثواه الأخير ، « ومضى . . من جزعه عليه إلى مشهد موسى بن جعفر عليهما السلام ، لأنه لم يستطع أن ينظر إلى تابوته ودفنه ، وصلى عليه فخر الملك أبو غالب ، ومضى بنفسه آخر النهار إلى أخيه المرتضى بالمشهد الشريف الكاظمي ، فألزمه بالعود إلى داره(٢) .

ثم رثاه بقصيدة سينية جاءت دليلا قاطعا على نفس تذوب حسرات إثر رحيل تربها ومن ربطتها به علائق لم يود بها سوى الموت الغشوم ، يقول فيها(٣) .

قدني إليك فقد أمنت شماسي	وكفيت مني اليوم صدق مراسي
ولقيتني متخشعا لا يرتجى	نفعي ولا يخشى العشية باسي
أسري بلا هاد بكل مضلة	وأجوب مظلمة بلا مقباس
وأذود عن قلبي الهموم كأنني	أحمي أسود شرى عن الأخياس(٤)

---

(١) نفسه ٢ ١٧ - ٢١ .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ٤٠

(٣) ديوان الشريف المرتضى ٢/ ١٣١ - ١٣٥ .

(٤) جمع الخيس : موضع الأسد

وتعد لى نوب الزمان مصائبا　　فى كل شارقة بلا إبساس(١)
فى أسر قاصمة أخادع جترتى　　عنها وأكتم داءها جلاسى
فأنا الجريح بلا شفار صوارم　　وأنا الرمى بغير ما أقواس
بالرجال لفجعة جذمت يدى　　ودنتها ذهبت على براسى
مازلت أحذر وردها حتى أتت　　فحسوتها فى بعض ما أنا حاسى

. . . . . .

ياصاحبى هل ناب سمعك مثلما　　قد نابنى نبأ أطار نعاسى
أنعى على كبدى يوشك سماعه　　نار تحز جنوبها بمواسى
وظننته مثل الرزايا قبله　　فإذا به رزء عزيز الآسى
خطر أعط عليه صبرى بعده　　وأجله عن أن أعط لباسى(٢)
لا تنكرا من فيض دمعى عبرة　　فالدمع خير مساعد ومواسى

. . . . . .

ياموت كيف أخذت نفسى تاركا　　نفسا عليها جمة الأنفاس ؟
كيف اجتنبت سوى الأكارع(٣) عامدا
وأصبت حين أصبت أم الراس ؟

هذه القصيدة نفثة مصدور ، وأنه مكروب ، وقد جاءت كلماتها وعباراتها محملة بفيض من مشاعر ، المرتضى ، الذى لذع قلبه أسى ممض ، وحسب المرء أن يعمل عقله فى قوله :

أسرى بلاهاد بكل مضلة　　وأجوب مظلمة بلا مقباس

وأن يتأمل إشعاعات عباراته : « فأنا الجريح بلا شفار صوارم » ، « وأنا

---

(١) الشارقة : الصبيحة ، الإبساس : قول الحالب للناقة بس بس لتسكينها
(٢) أعط : أشق .
(٣) الأكارع : جمع كراع : وهو من الإنسان مادون الركبة إلى الكعب .

الرمى بغير ما أقواس » و « ويا للرجال لفجعة جذمت يدى » ، و « أبعى على كبدى » ، و « فيض دمعى » .

وأن يقف مرة أخرى أمام قوله :

وظننته مثل الرزايا قبله   فإذا به رزء عزيز الآسى

والشاعر فى البيتين الأخيرين من الأبيات المذكورة بتوجيه بالسؤال إلى الموت ، على الرغم من أنه لا يعقل ، وما ذلك إلا لأنه - كما يقول البلاغيون - اختلط عليه الأمر من هول المأساة ؛ فتوجه بالسؤال إلى مالا يتوجه بالسؤال إليه .

هذه آية ثالثة تفصح عن علاقة أخوية قوية ، الصفاء لحمتها وسداها ، وأنها بقيت حتى عجل الموت بالرضى على الرغم من المرتضى .

ومن نافلة القول أن أنبه إلى أن ماصدر عن « الرضى » من شعر فى تهنئة وتعزية أخيه « المرتضى » ببناته اللاتى رزقهن ثم سلبهن ، كان فى باكورة حياة الشريفين . ومدحه « المرتضى » فى « الرضى » قيلت - كما أشرت سابقا - بعد زوال الجفوة . وجاء موقف « المرتضى » من « الرضى » يوم وفاته ، ثم كانت مرثيته الباكية ، مما يجعلنى أقول : إن العلاقة بين الشقيقين ظلت مؤرجة بعبق الصفاء النبيل الذى أظلهما حتى فرق الموت بينهما ، وترك « المرتضى » نفسا محطمة تعول فى إثر رحيل بعضها :

ياموت كيف أخذت نفسى تاركا   نفسا عليها جمة الأنفاس ؟

أسباب الجفوة بين الشريفين :

النفس البشرية هى هى ، لا تنزع عنها نوازعها لعراقة المحتد ، أو لرحابة العلم ، أو التوغل فى الدين ، ولكن تلك النوازع قد تخف حدتها أو تقوى نزولا على هذه المؤثرات ، ومن عجب أن يتعجب الأستاذ محمد عبد الغنى حسن من « أن تسوء العلاقة بين أخوين شقيقين من أهل البيت ، فأبوهما

واحد، وأمهما واحدة ، ولكن فى هذا دليلا على النفس البشرية التى يقلبها مقلب القلوب ، فلا تمنعها أخوة ، ولا يعصمها شرف الأبوة(١) .

ولكنا نقول : إن الأخوة وشرف الأبوة والإيغال فى الدين والعلم ، كل ذلك قد نهنه من غرب هذه الجفوة ، وحصرها فى نطاق ضيق ، وجعل منها سحابة صيف عابرة ، ما إن بدت حتى انقشعت دون أن تخلف بدوبا فى قلبى الشقيقين ، على العكس من غيرهما كما سنرى عند يزيد بن الحكم الثقفى فى عتاب أخيه .

والحديث عن تلك الجفوة يثير تساؤلا ملحا عن الدافع الذى أزجاها متجاوزة أسوارا عـــدة ، والذين عنوا بالترجمة للشريفين ودراسة أحداث عصرهما لم يفصحوا عن أسبابها ، مما يدفع إلى الحدس والتخمين عند محاولة الوقوف عليها .

وكان الدكتور « زكى مبارك » أول من عنى بدرس الشريف الرضى درسا مفصلا فى « عبقرية الشريف الرضى » ، وقد كانت له وقفة مع هذه المعضلة النفسية ، إذ يقول(٢) : لا تحدثنا كتب التراجم عن أسباب الجفوة التى وقعت بين ذينك الأخوين ، ولكنا نعرف أنهما لم يكونا مؤتلفين كل الائتلاف ، لأن مذاهبهما فى الحياة كانت مختلفة بعض الاختلاف ، ويمكن الحكم بأن الرضى كان جمهوره من أهل الأدب ، وأن المرتضى كان جمهوره من أهل العلم ، وهنا تظهر أسباب المنافسة بين الأخوين ، فالرضى الشاعر كان عالما جليلا ، والمرتضى العالم كان شاعرا مجيدا . . . ولكن هل تجور الدنيا إلى هذا فيرى أخاه الشقيق وهو يمضغ عرضه بلا تورع ولا استحياء ؟... فإذا

---

(١) الشريف الرضى لمحمد عبد الغنى حسن ص ٥١ (سلسلة نوابغ الفكر) ط دار المعارف ١٩٧٠ م

(٢) عبقرية الشريف الرضى د/ زكى مبارك ٢/٢٢ - ٢٤ ط ٤ مطبعة حجازى

نقل الواشون إلى الرضى أن أخاه « المرتضى » يسلقه فى غيبته بلسان حديد ، فإنما يصورون له مجدا يتقلص وملكا يضيع ... وأحب أن أقول : إنه لم يحم على أخيه إلا بعد أن ضاقت فى وجهه مسالك الصفح الجميل .

وكأنى بالدكتور « زكى مبارك » يرجع أسباب هذه الجفوة إلى اختلاف مذهبيهما فى الحياة ، إختلافا رآه أصحاب النفوس المدخولة ثلمة يمكن التسلل منهما إلى هذا البيت الذى قبعت فى رحابه المناصب الدينية الخطيرة . وهذا قول فى حاجة إلى مراجعة ؛ فليس إختلاف المذهب فى الحياة لأن أحدهما كان جمهوره من أهل الأدب وأن الآخر كان جمهوره من أهل العلم ، وإنما من رغبة « الرضى » فى المناصب السياسية المرموقة ؛ إذ رأى نفسه أحق بالخلافة من الخلفاء أنفسهم ، وقد أفصح عن ذلك فى شعره غير مرة ، أما « المرتضى » فقد رغب عن المناصب السياسية ، وصرف طموحاته إلى العلم ، يمحص قضاياه ، ويجلى غوامضها ، ومن ثم لم توغر طموحات أخيه السياسية صدره ، لأنه صرف نفسه عنها . وليس أدل على ذلك من أنه ارتضى صرف نقابة الطالبيين إلى أخيه « الرضى » ، على الرغم من أن « المرتضى » أكبر سنا . وأقدر على الغوص وراء القضايا العلمية الدقيقة التى تفرض على من يلى منصبا دينيا جليلا كنقابة الطالبيين .

وقد تضمنت مقولة الدكتور « مبارك » عبارات قاسية أنزه ماوقع بين الشريفين عن الاتصاف بها ، كتصويره ماوقع من « المرتضى » فى حق أخيه الرضى بأنه يمضغ عرضه بلا تورع ولا إستحياء ، وأنه كان يسلقه فى غيبته بلسان حديد ، فإن مضغ العرض بلا تورع ولا إستحياء ، والساق بألسنة حداد ، لا يصدر عن رجل كالمرتضى له من شرف النسب ، ووقار العلم ، وسمت الدين الأريب ، ما يربأ به عن الإنحدار إلى هذا الدرك ، هذا فضلا عن أن عرض أحدهما عرض الآخر ، ولكنها حدة الدكتور زكى مبارك ، ولعل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويرى أن هذه العبارات على لسانه جاء صدى لقول صديقه « الشريف الرضى » في ضاديته الشهيرة :

أتانى وبطول من النأى بيننا … قوارص تنبو بالجفون عن الغمض
ومولى ورى قلبى بلذعة جيسم … من الكلم العوراء مضا على مض

وما أراد « الرضى » ماذهب إليه الدكتور زكى مبارك ، لكنه - وهو الشاعر المرهف الحس ، الذى ارتضع أفاويق الفضائل - تبدو الصغيرة من أخيه « المرتضى أمام عينيه » كبيرة ، توجعه ، وتدمى قلبه ، وتكدر من حياته ماصفا .

أما الدكتور « عبد الفتاح الحلو » فيرجع هذه الجفوة إلى أبيات قالها « الرضى » ، عرض فيها ببنى العباس ، وأشاد بالفاطميين فى مصر ، وأبدى رغبة فى الانعطاف إليهم ، مما أغضب الخليفة العباسى « القادر بالله » ورفعه إلى صرف والد الشريفين عن نقابة الطالبيين ، ويروى ابن الجوزى أنه(١) « جرت للرضى قصة مع القادر بالله فى أبيات رفع إليه أنه قالها ، وهى هذه :

كم مقامى على الهوان وعندى … مقول قاطع وأنف حمى
وإباء محلق بى عن الضيـ … ـم كما زاغ طائر وحشى
أى عذر له إلى المجد إن ذل … غلام فى غمـده المشرفى
ألبس الذل فى ديار الأعادى … وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا … ى إذا ضامنى البعيد القصى
لفه عرق بعرقه سيد النا … س جميعا : محمد وعلى
إن خوفى فى ذلك الربع أمن … وأوامى بذلك الورى رى
قد يذل العزيز ما لم يشمر … لانطلاق وقد يضام الأبى
كالذى يقبس الظلام وقد أقـ … ـمر من خلفه الهلال المضى

---

(١) المنتظم فى تاريخ الملوك والامم لابن الجوزى ٧/٢٨١-٢٨٢ .

ولما كتب أصحاب الأخبار بهذه الأبيات إلى « القادر » غاظه أمرها ، واستدعى القاضى أبا بكر محمد بن الطيب ، وأنفذه إلى الشريف الطاهر أبى أحمد (والد الشريفين) برسالة فى هذا المعنى ، فقال القاضى أبو بكر فى الرسالة : قد علمت موضعك منا ، ومنزلتك عندنا ، ومالا نزال من الاعتداد بك ، والثقة بصدق الموالاة منك ، وما تقـــدم لك فى الدولة العباسية من خدم سابقة ، ومواقف محمودة ، وليس يجوز أن تكون على خليقة نرضاها ويكون ولدك على ما يضادها ، وقد بلغنا أنه قال شعرا هو كذا ، فيالبت شعرنا على أى مقام ذل أقام ! ، وما الذى دعاه إلى هذا المقال وهو ناظر فى النقابة والحج فيما هو أجل الأشمال وأقصاها علوا فى المنزلة !

وعساه لو كان بمصر لما خرج من جمـــلة الرعية ، وما رأينا - على بلوغ الامتعاض منا مبلغه - أن نخرج بهذا الولد عن شكواه إليك وإصلاحه على يديك . فقال الشريف الطاهر : والله ماعرفت هذا ، ولا أنا وأولادى إلا خـــدم الحضرة المقدسة ، المعترفون بالحق لها ، والنعمة منها ، وكان فى حكم التفضل على يهذب هـــذا الولد بإنفاذ من يحمله إلى الدار العزيزة ثم يتقدم فى تأديبه بما يفعل بأهل الغرة والحداثة . فقال له القاضى أبو بكر : الشريف يفعـــل فى ذلك ما تراه الحضرة المقدسة ، فيزول ما خامرها به ، ثم استدعى الشريف ابنيه المرتضى والرضى وعاتب الرضى العتاب المستوفى ، فقال له : ما قلت هـــذه الأبيات ولا أعرفها . فقال له : إذا كنت تنكرها فاكتب خطك للخليفة بمثـــل ما كنت كتبت به فى أمر صاحب مصر ، واذكره بما أذكره به من الادعاء فى نسبه ، فقال : لا أفعل ، فقال له : كأنك تكذبنى بالامتناع من مثل قولى ! ، فقال : ما أكذبك ولكنى أخاف الديلم ، ومن للرجل من الدعاة بهذه البلاد ! ، فقال : يا للعجب ، تخاف من هو منك على بلاد بعيدة وتراقبه ، وتسخط من أنت برأى منه ومسمع وهو قادر عليك وأهلك !! .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتردد القول بينهما حتى غلظ الرضى فى الجواب ، فصاح الطاهر أبو محمد ، وقام الرضى ، وحلف الطاهر ألا يقيم معه فى بلد ، وآل الأمر إلى إنفاذ القاضى أبى بكر وأبى حامد الإسفرايينى ، وأخذا اليمين على الرضى أنه لم يقل الشعر المنسوب إليه .

ويضيف ابن أبى الحديد أن أبا الرضى خلف ألا يكلمه ، وكذلك المرتضى ، فعلا ذلك تقية وخوفا من « القادر » وتسكينا . ولما انتهى الأمر إلى « القادر » سكت على سوء أضمره ، وبعد ذلك بأيام صرفه عن النقابة ، وولاها محمد ابن عمر النهرسابسى(١) .

هذه الحادثة - فى تقدير الدكتور الحلو - أغضبت والد « الرضى » وأخاه « المرتضى » ، ومن ثم كانت الجفوة حقيقية بين الشقيقين المرتضى والرضى ، وليست مفتعلة تقية وتسكينا كما يذهب ابن أبى الحديد ؛ إذ غضب الرجل من الرضى عقبا شديدا ؛ « لأنه أفسد عليه جهوده السياسية ، ولأنه يخوض غمار بحر لا ساحل له ، يعرف أبو أحمد مخاطره ، وقد راض نفسه - وأحب أن يتبعه ولده - على أن يسير على ساحله فى حذر »(٢) .

أما الأستاذ محمد عبد الغنى حسن فيرى « أن السبب فيما عرض بينه وبين أخيه المرتضى هو مابلغه من أن أخاه لم يذكره بالخير فى أحد مجالسه ، وما أحفل ما كانت مجالس المرتضى ! ، وأنه لذعه بالكلم العوراء ، فتغيمت نفسه على أخيه ونظم قصيدة ضادية قاسية »(٣) .

ولا تعارض بين هذه الآراء ، وفى اعتقادى أن المرتضى ساء موقف

---

(١) شرح نهج البلاغة ١/٣٨ - ٣٩ .
(٢) الشريف الرضى - حياته ودراسة شعره - د/ الحلو ١/١٥ .
(٣) الشريف الرضى لمحمد عبد الغنى حسن ص ٥١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخيه من أبيه - على جلاله ووقاره - فى الحادثة التى أشار إليها ابن الجوزى وابن أبى الحديد ، كما روعه - وهو الشفيق الحدب على أخيه - أن تبلغ المطامع السياسية به هذا المبلغ الذى قد يودى به وبأسرته معه ، فبات ضجرا به ، غير راض عن توجهاته . وطبعى أن ينعكس ذلك كله على تصرفات « المرتضى » فى مجالسه العلمية الحاشدة ، فبدت منه - على الرغم منه - آيات الضيق والضجر ، وخالط حديثه عن الرضى تقريع ولوم ، مالبث الوشاة أن نقلوه إلى الرضى مبالغا فيه ، مما أثار حفيظته ، وأنطقه بتلك القصيدة الضادية الرائعة التى كانت باكورة معاتبات الشقيقين .

حصاد الجفوة بين الشريفين :

ربطت مودة وثيقة - كما ألمحت من قبل - بين قلبى الشريفين منذ نعومة أظافرهما ، فكان كلاهما يسكن إلى الآخر ، ويعتمد عليه ، ويستأنس به ، ويستشيره فى المهم ، وينهض إليه فى الملم ، وكلاهما يعرف « أن العتاب حدائق المتحابين ، وثمار الأوداء ، ودليل على الضن بالصفاء ، وحركات الشوق ، ومستراح الوجد ، ولسان الإشفاق »(١) ، وكلاهما أيضا شاعر مجيد ، وفنان مرهف الحس ، لذا عمدا إلى المعاتبات الشعرية الرقيقة ، يستل كلاهما بها موجدة الآخر ، وكان حصاد ذلك بضع قصائد من أعتب وأرق ماخلف شعراء العربية قاطبة ، لكن الباحثين لم يولدها من الفحص والبحث ماهى به قمينة(٢) ، ومن ثم كانت لى معها هذه الوقفة المتأنية .

---

(١) الصداقة والصديق لأبى حيان التوحيدى ص ٣٦٠، شرح وتعليق على متولى صلاح - مطبعة الآداب ١٩٧٢م .

(٢) التفت إلى معاتبات الشقيقين : الدكتور زكى مبارك ، والدكتور الحلو ، والأستاذ محمد عبد الغنى حسن ، لكنها التفاتة عجلى ، لاتجوس خلال مسارب نفسى الشقيقين ، ولاتعطى تصورا متكاملا عن خصائص هذا اللون فى شعرهما ، لكن جهدهم مشكور غير منكور . بينما أغفلها تماما : الدكتور إحسان عباس فى كتابه « الشريف الرضى » ، ومحمد سيد الكيلانى فى كتابه «الشريف الرضى» الذى عنى =

وأولى قصائد العتاب بينهما ضادية الشريف الرضى ، التى قالها بعد ما نقل إليه عن نيل أخيه منه فى مجالسه ، وهى(١) :

١ ـ رضيت من الأحباب دون الذى يرضى
وادنيت من تقضى الديون ولا يقضى

٢ ـ وقد أنهرت فى الليالى جراحها مرارا ، وأنضانى من الهم ماينضى(٢)

٣ ـ طوى الدهر أسباب الهوى عن جوانحى
وحـــل الصبا عقد الرحايل عن نقضى(٣)

٤ ـ ولم يبق لى فى الأعـــين النجل طرفة
ولا أرب عنـــد الشباب الذى يمضى

٥ ـ ضحا اليوم عن ظل الشبيبة مفرقى وأبدل مسود العذار ببيض

٦ ـ أتانى ومطول من النأى بيننا قوارص تنبو بالجفون عن الغمض

٧ ـ ومولى ورى قلبى بلذعة ميسم من الكلم العوراء مضا على مض(٤)

٨ ـ فعذر الأعدائى ، إذا كان أقربى يشذب من عودى ويعرق من لحمى(٥)

فيه بالتشكيك فى ثوابت عقدية جلية ، والتهجم على الدين الإسلامى الحنيف. فض الله فاه ، وأماته بغيظه ، والاستاذ « عبد المسيح محفوظ » فى كتابه « الشريف الرضى بودلير العرب » وقد رجعت إلى هذه الكتب ، فوجدت مؤلفيها قد سكتوا عن هذا الجانب .

(١) ديوان الشريف الرضى ١ ٥٨٣ ـ ٥٨٥ .

(٢) أنهرت : وسعت ، يقال : أنهر الطعنة : وسعها اللسان (نهر)

(٣ الرحايل هى الرحائل جمع : رحالة ، وهى فى أشعار العرب : السرج كانوا يتخذونه المركض الشديد . (اللسان : رحل) النقض: المهزول من السير ناقة كان أم جملا .

(٤) المولى هنا : الاخ . يقال ورى الزند : خرجت ناره ، ورى قلبى : كواه . الميسم : المكواة . العوراء : الكلمة الفاحشة ، المض: الحرقة ، يقال : مضنى الهم أى أحرقنى (اللسان : مضض)

(٥) عرق العظم : أكل ماعليه من اللحم . النحض : اللحم . (أى أكل لحمى)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٩ - إذا مارمى عرضى القريب بسهمه   عذرت بعيد القوم إذا رمى عرضى

١٠ - ألم يأته أنى تفردت بعده   روابى للعلياء جاش لها نهضى

١١ - وأنى جعلت الأنف من كل حاسد   قبالى وخدى كل مضطغن أرضى(١)

١٢ - وكم من مقام دون مجدك قمته   على زلق بين النوائب أو دحض(٢)

١٣ - وقارعت من أعياك قيل قراعه   فداجنى بعد التشاور والبغض(٣)

١٤ - لقد أمست الأرحام منا على شفا   فأخلق بمشف لا يعالل أن يقضى(٤)

١٥ - رأيت مخيلات العقوق مليحة   فلا تجعلن برق الأذى صادق الومض(٥)

١٦ - ولا تشمتن من ود لو أننا معا   شجيحان تلطينا الجنادل بالأرض(٦)

١٧ - إذا كنت أغضى والقوازع جمة   فمثلك أولى أن يرم وأن يغضى(٧)

١٨ - على غصص لو كن فى البدر لم ينر   وفى العود لم يورق وفى السهم لم يمض

١٩ - رزئتك حيا بالقطيعة والقلى   وبعض الرزايا قبل يوم الفتى المقضى

٢٠ - أناديك فارجع من قريب فإننى   إذا ضاق بى ذرعى مضيت كما تمضى

---

(١) القبال (بكسر القاف) : زمام النعل بين الإصبع الوسطى والتى تليها

(٢) الزلق : المزلقة ، الدحض : المكان الزلق .

(٣) داجنى : وافقنى وصالحنى

(٤) الشفا : حرف كل شىء . مشف على الشىء : مشرف عليه ، يريد مشرف على الهلاك . يعالل : يعالج . يقضى : يموت .

(٥) المخيلات : جمع مخيلة وهى من أخيلت السماء إذا تهيأت للمطر ، المليحة من ألاح البرد إذا أومض .

(٦) شجيحان تحريف (شجيجان) مثنى شجيج وهو المجروح أنظر : عبقرية الشريف الرضى ٢٦/٢ . تلطينا : تلزقنا .

(٧) يقال أقذع القول : أساءه (اللسان : قذع) . يرم : يصلح .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢١- لقد كان في إحكم الوشائج لو رأى عن المجد بطئي أن يبالغ في حضي
٢٢- فكيف ولم تخرج مناديح همتي ولاذمت العلياء بسطي ولا قبضي (١)
٢٣- إذا هو أغضى ناظري على القذى
وكان لمشلي مسخطا فلمن يرضى !
٢٤- خليلي ماعودي لأول غامز ولا زبد وطبي المقيم على مخض (٢)
٢٥- فقل للعدى عضوا الأخامص إنكم
تعرقتم الأيدي على من العض (٣)
٢٦- هم نقضوا ما قد بنى أولوهم وشدنا وهيهات البناء من النقض
٢٧- وفي كل يوم يصبغ العار منهم رداء امرئ والعار باق على الرحض (٤)
٢٨- يريدون أن يخفوا النواقر بيننا
وقد صاحت الأضغان في الحدق المرض (٥)
٢٩- ذكرت حفاظي والحفيظة في الحشا
لها نغضان العرق يحفز بالنبض (٦)
٣٠- دعوتكم قبل التي لاشوى لها
وقلت لهم : فيئوا إلى الخلق المرضي (٧)

---

(١) تخرج تحريف تحرج أي تضيق ، أنظر : عبقرية الشريف الرضى ٢/٢٧ .
المناديح : جمع مندوحة المسالك .

(٢) الغامز : الذي يختبر العود ، الوطب : سقاء اللبن ، وهو من جلد ، المخض : أخذ الزبد من اللبن .

(٣) الأخامص جمع الأخمص : من باطن القدم مالم يصب الأرض .

(٤) الرحض : الغسل .

(٥) النواقر : جمع ناقرة أي : الداهية (اللسان : نقر) ، والمراد بهما هنا : الأحقاد .

(٦) الحفيظة : الحمية والغضب ، الحفاظ : المحافظة على العهد ، والتمسك بالود (اللسان : حفظ) . نغضان : تحرك . يحفز : يدفع .

(٧) أشوى من الشيء أبقى والاسم الشوى ، ولا شوى لها : لا إبقاء لها .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٣١ - ودونى غيرا قبل أن أحمل القذى
ولا فلا تردوا إلا على الثمد البرض(١)

٣٢ - ولسوا جميعى قبل أن يمنع الجمى
إبائى أو يوبى على رعيكم حمضى(٢)

٢٣ - ومن قبل أن يسدى المعادون بيننا
برود الخنا ماشئت فى الطول والعرض(٣)

٣٤ - ولا تركبوا سيساء دامية القرا بلاحقب تطوى البلاد ولاغرض(٤)
٣٥ - تقوا عار حرب لا يعود مثيرها وإن غلب الأقران إلا على رمض
٢٦ - ولا تولجوا زور العقوق بيوتكم أناشدكم بالله فى الحسب المحض
٣٧ - أراها بعين الظن حمراء جهمة ستجرى إلى عار العواقب أو تقضى
٣٨ - تهضمنى من لا يكون لغيره من الناس إطراقى على الهون أو غمضى
٣٩ - أفوق نبل القول بينى وبينه فيؤلمنى من قبل نزعى بها عرضى
٤٠ - وأرجع لم أولغ لسانى فى دمى ولم أدم أعضائى بنهشى ولاعضى
٤١ - إذا اضطرمت مابين جنبى غضبة وكاد فمى يمضى من القول مابمضى
٤٢ - شفعت على نفسى بنفسى فكفكفت
من الغيظ واستعطفت بعضى على بعضى

ابتلى « الشريف الرضى - وهو الذى رزق قلبا ألوفا - بمحنة عاتية مزقت نياط قلبه ، وجرعته كئوس الأسى مترعة ، إذا زور عنه أب ماجد وأخ رءوم

(١) الثمد بسكون الميم وفتحها : الماء القليل الذى لا مادة له ، البرض : القليل .
(٢) اللس : الأكل واللحس ونتف الدابة الكلأ بمقدم فمها . الجمى : النبت الكثير أو الناهض المنتشر . يوبى : يفسد . الحمض بفتح الحاء . ماملح وأمر من النبات .
(٣) يسدى من السدى : مامد من الثوب .
(٤) السيساء : منتظم فقار الظهر ومن الفرس حاركه ومن الحمار ظهره . القرا : الظهر . الحقب : الحزام يأى حقو البعير أو حبل يشد الرحل فى بطنه . الغرض للرحل كالحزام للسرج .

وانطوت جوانحه على هم مقيم ، ومما أجج نيران الأسى فى قلبه ما نقله الوشاة إليه على لسان أخيه « المرتضى » فى مجالسه الحاشدة ، فبات صريع عضبة نفسية عارمة ، قد يحملها أوارها على اجتثاث كل آصرة تربطه بهما ، لكنه كان يكبح جماحها بر النبوة وحنو الأخوة ، فيخبو لهيبها ، ويخف حدتها ، فجاءت حادثيه هذه تصويرا لتلك العواطف المصطرعة ، ليختلط فيها العتب بالوعيد .

وقد عمد « الرضى » إلى موضوعه مباشرة دون اللجوء إلى مقدمة تقليدية ، إذ هو معنى بالوصول إلى قلبيهما وصولا سريعا قبل أن تتغلب عليه نوازع الغضب ، والإتيان بمقدمة هنا لا يتفق ونفسيته التى تحتدم إحتداما . وقد استهل القصيدة استهلالا بارعا ، إذ أودعه كل ما تجيش به نفسه ، فقوله « رضيت » يخبر عن رضا بكل ما يلقاه من أحب الناس إليه ، وأقربهم منه ، وأنه مبق على مابينه وبينهما من وشائج ، ثم جاءت كلمة « الأحباب » تتويجا لإيحاءات الفعل « رضى » ، فهما ـ على الرغم من موقفهما منه ـ أحبابه الذين لا يملك إلا الرضا بكل ما يأتيه من قبلهم ، وإن كان موجعا . وأنه نزل على حق الأبوة فقابل إعراضا بإقبال : والبيت فيه تلطف بين ، ورغبة فى إستلال الموجدة من قلبيهما .

وهو فى الأبيات من ٢ ـ ٥ يحدث عن رجل بات غرضا لسهام الدهر تنوشه من كل جانب ، حتى أدمت قلبه ، وحالت بينه وبين ميادين اللهو على الرغم من شغفه بها ، ورغبته فيها .

والبيت الثانى :

وقد أنهرت فى الليالى جراحها مرارا وأنضانى من الهم ما ينضى

أنه مكروب ، ومن يتأمل كلمات البيت يقف على رجل مكروب تشف كلماته عن أسى دفين ، فالفعل « أنهر » بمعنى « وسع » ، ينبىء بجروح غائرة عز أن تندمل مع الأيام ، و « جراح » ، بصيغة الجمع يفيد كثرة ما أصابه ، وكذلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قوله : « مرارا » ، وبناء الفعل « أنضى » مفصحا عن رجل أتى عليه الهم ، وتحيفه من كل جانب ، وقوله : « ما ينضى » فيه تفخيم لما أصابه . وكأنى به يريد بهذه الأبيات استعطاف أبيه وأخيه ، واستمالتهما إليه ، فقد كفاه الدهر غمزا حتى لانت قناته أو كادت ، وهما أحق الناس بنصرته والذب عنه ، لا أن يكونا عونا مع الدهر . وهذا - فى تقديرى - من أرق ما قيل فى الاستعطاف والاستمالة .

وهو فى الأبيات من ٦ - ٩ يدلف إلى صلب الموضوع ؛ إذ حدث عما أصابه من جراء ما تفوه به « المرتضى » فى مجالسه من الكلام الجافى ، مما أضاف إلى النأى بعداً آخر ، إنه الأسى الممض الذى أقض مضجعه ، وطوى قلبه على مستكنة . وإذا كان صنيع ذوى القربى القريبة منه ، فإنه يعذر من ليس تربطه بهم هذه الصلة حين تتابع إليه سهامهم . وقد حمل البيتان ٩ - ١٠ معنى جيدا ، فيه تقريع « المرتضى » ودعوة إلى النزول على متطلبات الرحم القريبة ، والتخلى عن الإساءة :

فعذرا لأعدائى إذا كان أقربى ... يشذب من عودى ويعرق من نحضى
إذا مارمى عرضى القريب بسهمه ... عذرت بعيد القوم إما رمى عرضى

وكان فى مكنة الشاعر الاكتفاء بالأول منهما ، ففيه تكامل المعنى الذى يقصد إليه ، لكنه عمد إلى تكرار المعنى نفسه فى البيت الثانى ليحدث التأثير المطلوب فى قلبى الأب والأخ ، وإن كنت أميل إلى أنه توجه بهما إلى « المرتضى » وحده .

وفى الأبيات من ١ - ١٣ يفصح « الرضى » عن سعيه الدءوب نحو مراقى العلا ، غير عابئ بما يعترض طريقه من صعاب ، وأنه نذر نفسه للذب عن أسرته ذات الحسب الحسيب ، وهذا دور ينبغى أن يحمد عليه ، لا أن يجفى وينتقص من قدره ، هذا الكلام - فى تقديرى - عتاب زكى موجه إلى الأب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أولا، وكأنى بالرضى يقول لأبيه : مثلى ينبغى أن تشحذ عزائمه وتستنفر همته بالمؤازرة ممن فى مثل جاهك ومكانتك .

والأبيات من ١٤ - ٢٣ بدت فيها نفس « الرضى » وقد تفلتت من عقل تعاطف ذوى الأرحام ومودتهم ، وما يشيع بينهم من لين الجانب ، والتلطف فى القول ، فبدأ يخاشن أخاه ، ويغلظ له القول ، ويلوح فى وجهه بالقطيعة ، ويفكر فى العقوق ، لكنه سرعان ما أصاخ إلى صوت العقل ووشائج الأخوة ، فهدأت نفسه قليلا ، وسكنت ثورته ، فقال :

ولا تشمتن من ود لو أننا معا شجيجان تلطينا الجنادل بالأرض

وهذه لمحة ذكية منه ، إذ ذكر أخاه أنهما معا هدف هؤلاء الوشاة الذين يحرصون على تفويض دعائم بيت تنتهى إليه رئاسة الدين والدنيا معا ، فوقعت كلمة « معا » فى البيت موقعها ، وأفادت معنى يتم به مايرمى إليه الرضى .

ثم دعا أخاه إلى الإغضاء عن هفواته ؛ لتقدم سن « المرتضى » ، ولريادته مواكب العلم فى العراق :

إذا كنت أغضى والفواذع جمة فمثلك أولى أن يرم وأن يغضى

وفى قوله : « والقواذع جمة » إيماءة إلى كثرة مالقى منه ، وكان هو القمين بالعفو والصفح ولين الجانب .

ثم بعث زفرة ملتهبة إذ قال :

رزئتك حيا بالقطيعة والقلى وبعض الرزايا قبل يوم الفتى المقضى

وكأنى به يقول له : إعراضك عنى ، وذكرك إياى بما أكره ، رزء جلل حل بى ، شربت به الأسى نهلا وعللا ، حتى صرت نهبا للأحزان المتعاقبة ، على الرغم من أنك حى ترزق .

ولكنه جد حريص على عود الصفاء إلى سابق عهده ، فكان هذا القول اللين:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أناديك فارجع من قريب فإننى إذا ضاق بى ذرعى مضيت كما تمضى

فقوله : « من قريب » فيه لمحة ذكية ، إذ دعاه إلى الإسراع فى رأب الصدع قبل إتساع الخرق على الراقع ، وفيه إلماح إلى أنه مايزال وفيا لوشائج الأخوة ، ثم يحذره مغبة التمادى فى الهجر والإصاخة إلى الوشاة .

ثم يعود إلى استعطاف أخيه ، واستثارة نوازع الإشفاق فيه ، إذ يقول :

لقد كان فى حكم الوشائج لو رأى عن المجد بطئى أن يبالغ فى حضى
فكيف ولم تخرج مناديح همتى ولازمت العلياء بسطى ولاقبضى
إذا هو أغضى ناظرى على القذى وكان لمثلى مسخطا فلمن يرضى ؟

والبيت الثالث منها بلغ الغاية فى الاستعطاف وإستثارة عاطفة الأخوة .

والأبيات فى جملتها فيها إفصاح عن أسباب غضبه ، ومن ثم أسباب عتبه ، وقد كان - كعهدنا به دوما - صريحا فى عرضها ، صراحة بلغت حد العنف أحيانا ، لكنه العنف الذى تزجيه رغبة ملحة فى رأب الصدع ، وتواصل علائق الأخوة .

وفى الأبيات من ٢٤ - ٢٨ يجبه « الرضى » أعداءه بما يوجعهم ، إذ أملوا أن تأتى هذه الجفوة على علاقة كلا الشقيقين بالآخر ، فيتفسخ البيت المعد لرياسة الدين والدنيا معا ، وتنهار آمال « الرضى » وطموحاته التى لاتقف عند حد . فحدثهم عن جلده وتماسكه ، وأنه باق على طموحاته ، وفاخرهم بما شاد من مفاخر ، وبنى من أمجاد ، ثم خبرهم أنه - بفراسته - قد وقف على مستكنات قلوبهم ، وبدله سوء ما انطوت عليه . ولايخفى علينا أن رجلا كالرضى رزق همة عالية ، ونفسا طامحة ، ولسانا مصلتا كالسيف الضارم ، له حاسدوه ، لذا دعا أخاه - فى ثنايا هذه القصيدة إلى قطع الطريق على هؤلاء الأعداء ، بأن يمد يد الصفح :

ولا تشمتن من ود لو أننا معا شيجيجان تلطينا الجنادل بالأرض

و« كان الشريف قد امتحن بجماعة من أقربائه يناصبونه العداء ، ونحن

نعرف أسباب تلك العداوة ، فقد كانت هناك مناصب موقوفة على الأشراف ، وكانت الحروب على تلك المناصب لا تنفك مسعرة الضريم»(١) .

ثم هجمته وقذة الضجر من موقف « المرتضى » منه ، وكانت جد موجعة ، فأزجت على لسانه حشدا من آيات الضجر والسخط التى أنبثت فى أبيات القصيدة من ٢٩ - ٣٧ على وجه الخصوص :

ذكرت حفاظى والحفيظة فى الحشا ... لها نغضان العرق يحفز بالنبض
دعوتكم قبل التى لاشوى لها ... وقلت لهم : فيئوا إلى الخلق المرضى
ردونى نميرا قبل أن أحمل القذى ... ولاتردوا إلا على الثمد البرض
ولسوا جميمى قبل أن يمنع الحمى ... إبائى أو يوبى على رعيكم حمضى
ومن قبل أن يسدى المعادون بيتا ... برود الخنا ماشئت فى الطول والعرض
ولاتركبوا سيساء دامية الفرا ... بلا حقب تطوى البلاد ولاغرض
تقوا عار حرب لايعود مثيرها ... وإن غلب الأقران إلا على رمض
ولاتولجوا زور العقوق بيوتكم ... أناشدكم بالله فى الحسب المحض
أراها بعين الظن حمراء جهمة ... ستجرى إلى عار العواقب أو تقضى

إنها نفس « الشريف الرضى » المترعة بفيض من المشاعر التى تموج حينا وتسكن حينا آخر ، وهى حال اضطرا بها ترمى باللهب ؛ فهاهوذا يذكر حفاظه على وشائج الأخوة ، بينما لم يرع المرتضى - فى تقدير الرضى - حقوق هذه الأخوة ، فتموج نفسه بفيض من مشاعر الغضب الجامح ، فيدعو أخاه فى حدة حادة إلى تدارك الموقف ، بمد جسور الود قبل أن تأتى القطيعة على مابينهما من أواصر ، ثم حذره مغبة امتطاء صهوة العناد والعقوق بالتمادى فى القطيعة ، فنى ذلك الوبال كل الوبال .

لكنه - نزولا على حكم وشائج الأخوة - مالبث أن أصاخ إلى صوت العقل ، فكان هذا القول الرقيق الذى يأخذ بمجامع القلوب ، ويسكن الخواطر الجامحة :

---

(١) عبقرية الرضى د/ زكى مبارك ١٩/٢

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تهضمنى من لايكون لغيره ... من الناس إطراقى على الهون أغضى
أفوق نبل القول بينى وبينه ... فيؤلمنى من قبل نزعى بها عرضى
وأرجع لم أولغ لسانى من دمى ... ولم أرم أعضائى بنهشى ولاعضى
إذا اضطرمت مابين جنبى غضبة ... وكاد فمى يمضى من القول مايمضى
شفعت على نفسى بنفسى فكفكفت ... من الغيظ واستعطفت بعضى على بعضى

فهو يستشعر فى قرارة نفسه مرارة مريرة ؛ لموقف أخيه منه ، ويود الانتصاف لنفس تأبى الهون ، ولكن أنى ذلك ومن يود الانتصاف منه تربطه به أقوى الوشائج ، إنه أخوه الشريف المرتضى !! . لذا كلما هم بالرد عليه هاجت بلابله ، ورق قلبه ، وتملكه جدب الأخوة ، وأيقن أنه بذلك يدمى قلبه ، ويثلم عرضه هو ، فالمرتضى شقيق روحه ، وأليف صباه ، غذاهما لبان واحد ، وأظلهما حسب واحد ، ومن ثم فإن سهامه سترتد إلى صدره قبل أن تصيب أخاه ، لذا أخذ يروض نفسه حتى سكنت ، ونزلت على حكم وشيجة الأخوة ، ويالها من وشيجة !

ومن يتأمل القصيدة يستشف أمورا :

أولها : تمكنت من «الرضى» رغبتان ، لكتيهما ما يحفزها ، رغبة الانتصار لنفسه بالرد على أخيه ، وهذه تحفزها نفس أبية ما أغضت على هون يوما ما ، ووشاة إنطوت نفوسهم على رخق ، وهم جد حراص على إضعاف الشقيقين بتمزيق ما بينهما من أواصر ، وقد وجدت النفس فى وشاياتهم ما يذكى نزوعها ويدفعها إلى طريق القطيعة والهجر (بضم الهاء) على الرغم من سوء عاقبته . أما الرغبة الأخرى فهى الإغضاء عن زلة الأخ ، ولين الجانب له ، ومد جسور الود بينه وبينه ، وتلك الرغبة أيضا لها من النفس مايحفزها ويشد من أزرها ، إذ أشرب « الرضى » فى قلبه منذ الصغر مودة « المرتضى » ، وحبه حباً جما خالط منه اللحم والدم ، وكان لنشأتهما فى بيت هذا ميراثه من الفضائل النفسية أثر بين فى حفز نفس الرضى إلى لين الجانب .

لذا كان هذا الصراع النفسى المحتدم الذى يطل برأسه من ثنايا القصيدة ، يغضب حتى لنظن أن الأواصر بينهما منبتة لا محالة ، ويلين حتى لنقول : إن ما بينهما من وشائج لن تنال منها أحداث الحياة وإن جلت . وهو فى كلتا الحالتين لم يتكلف تجربة ، ولم يفتعل موقفا ، وإنما يعبر عن تقلبات نفسه ، وهتاف مشاعره ، ومن ثم نعد هذا التباين فى الشعور مظهرا من مظاهر صدقه فى التعبير عن نفسه .

ثانيها : تؤكد القصيدة ـ غير مرة ـ أن « الرضى » يحمل بين جنبيه قلبا معمورا بحب « المرتضى » ، وإجلاله ، وأنه يصفيه خالص وده على الرغم من مظاهر الجفاء والحدة أحيانا . نلمس ذلك من مطلع القصيدة وخاتمتها ، فمطلعها :

رضيت من الأحباب دون الذى يرضى

ودانيت من تقضى الديون ولا يقضى

فيه براعة استهلال لا تخفى على بصير بمرامى الكلام ، إذ ضمنه موقفه من أخيه وما يكنه له من ود مكين ظن المحيطون بهما أن الجفوة قد أتت عليه . وجاء قوله : « رضيت » يقطع على الوشاة مسرة كانوا يطمعون أنفسهم فيها ، وكأنى به يقول : ما الغضبة التى بدت آثارها على قسمات الوجه وفلتات اللسان إلا الرغوة ، أما اللبن الصراح فود ودود ، وحب صادق ، ورغبة عارمة فى تواصل الود ومد جسوره . ومعانى المطلع واضحة ، وألفاظه جزلة مأنوسة ؛ وأسلوبه محكم النسج ، وجاء التصريع متمما مزايا هذا المطلع ، لذا أقول : إن مطلع القصيدة قد ضم إلى براعة الاستهلال حسن الافتتاح ، وهذا ينبىء عن شاعر فحل يمتلك أدوات صناعته ويوظفها فى خدمة عمله الفنى .

وجاءت الخاتمة أيضا مجسدة مشاعر « الرضى » ، إذ أجملت ـ فى براعة ـ ما فصله فى القصيدة :

إذا اضطرمت مابين جنبي غضبـــة

وكاد فمي يمضي من القول مايضي

شفعت عن نفسي بنفسي فكفكفت

من الغيظ واستعطفت بعضي على بعضي

وقد حمـــل بيته الأول إشارة بليغة إلى غضبة عنيفة كادت تسيطر عليه، وتخرجه عن سمته، فكان منه الهم بالهجر، وحمل بيته الثاني إشارة إلى أنه احتال على النفس بها، حتى ذهبت ثورتها، ولانت بعد جماح. ويبدو أن الشاعر قد حشد لها كل طاقاته الفنية، فجاءت ألفاظها قوية جزلة رشيقة، أنوسة، وألفاظها واضحة، ونسجها محكما. وهي بالإضافة إلى هذا تشعر أنها الغاية التي لا غاية بعدها، وهي بهذا كله تتفق وما تعارف عليه النقاد من مقاييس الجودة والفنية إذ ذهبوا إلى أنه « ينبغي لكل بليغ أن يختم كلامه في كل مقصد بأحسن الخواتيم، فإنها آخر ما يبقى على الأسماع، وربما حفظت من بين سائر الكلام لقرب العهد بها، فلا جرم وقع الاجتهاد في رشاقتها وحلاوتها، وفي قوتها وجزالتها، وينبغي تضمينها معنى تاما يؤذن السامع بأنه الغـــاية والمقصد والنهاية »(١).

وبين المقدمة والخاتمة ما يشي بمجاهـدة الشاعر نفسه، ومحاولته السيطرة على مشاعره الجامحة كلما همت بانطلاق. ومن يتأمل أبيات القصيدة من ٣٠ ـ ٣٧ يجد نفسا تملكها الغضب، وكاد يدفعها ـ على الرغم منها ـ إلى طريق القطيعة والعقوق، فأغلظ لأخيه القول، حتى بلغت غضبته المدى في قوله:

أراها بعين الظن حمـــراء جهمة

ستجري إلى عار العواقب أو تمضي

---

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى العلوي ١٨٣/٣ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ثم وجدناه يؤثر اللين ، ويستثير فى أخيه نوازع الحب الأخوى، فيقول :

تهضمنى من لا يكون لغيره من الناس إطراقى على الهون أو غضبى

وظل ينحو المنحى نفسه حتى آخر القصيدة ، وهذا يشير أن حربا نفسية كانت تدور بين الشاعر وبين نفسه ، ولكنه تمكن فى النهاية من التغلب عليها، وكبح جماحها .

ثالثها : برع « الرضى » فى انتقاء كلمات موجبة يبث من خلالها شكايته إلى من تحولت قلوبهم عنه على الرغم من الأواصر الحميمة ، وهى فى الوقت نفسه وليدة عالمه النفسى الذى يموج بمشاعر متباينة . فهو حين يتحدث عن قسوة الدهر عليه ، ونيله منه ، يأتى بكلمات تشى بمحروب عاجلته سهام الدهر حتى ضعضعته ، مثل قوله : أنهرت فى الليالى جراحها ،وأنضانى . وينضى ، والهم ، وطوى ، ونقضى . وحين يعرض لما ناله به أخوه فى مجالسه يعمد إلى كلمات تقطر أسى ومرارة ، وتشف عن نفس أتى عليها الهم ، مثل قوله :

ومولى ورى قلبى بلذعة ميسم من الكلم العوراء مضا على مض

فعذر الأعدائى إذا كان أقربى
يشذب من عودى ويعرق من نحضى

إذا مارمى عرضى القريب بسهمه
عذرت بعيد القوم إما رمى عرضى

فالكلمات : ورى ، ولذعة ميسم ، والكلم العوراء بصيغة الجمع ، ومضا على مض ، ويشذب من عودى ويعرق من نحضى ، ورمى ؛ وتكرار كلمة عرضى ؛ كلها تشى بنفس تذوب كمدا لما لحقها من شقيق الروح . وحين يحدث عن سلامة نهجه فى الحياة ؛ وأن الجفوة ظلم ليس له ما يبرره ، يقول :

ألم يأته أنى تنمردت بعده روابى للعلياء جاش لها نهضى

وأنى جعلت الأنف من كل حاسد قبالى وخدى كل مضطغن أرضى

: وكم من مقام دون مجدك قمته على زهق بين النوائب أو دحض
وقارعت من أعيائك قبل قراعه فدابجني بعد التشاور والبغض

وهو قول ضمن حشدا من الكلمات الموحية بطموحات الرضى، وأنه رده لأبيه وأخيه. ويستمر «الرضى» على هذا المنوال حتى نهاية القصيدة.

وقد برع كذلك فى رسم الصور وتلوينها، واستكمال جوانبها، وربط أجزائها بالمشاعر النفسية والخطرات الوجدانية، كقوله:

فحذر الأعدائى إذا كان أقربى
يشذب من عودى ويعرق من نحضى

وقوله:

لقد أمست الأرحام منا على شفا
فأخلق بشف لا يعلل أن يقضى
رأيت مخيلات العقوق مليحة
فلا تجعلن برق الأذى صادق الومض

وقوله:

ردونى نميرا قبل أن أحمل القذى ولا تردوا إلا على الثمد البرض
ولسوا جميمى قبل أن يمنع الحمى إبائى أو يوبى على رعيكم حمضى
ومن قبل أن يسدى المعادون بيننا
برود الخنا ماشئت فى الطول والعرض
ولا تركبوا سيساء دامية القرا
ولا حقب تطوى البلاد ولا غرض

وهى صور موحية يذهب العقل فى الوقوف على مناحى البراعة فيها مذاهب شتى.

رابعها: تبدى القصيدة تأثر «الرضى» بفحول شعراء العربية السابقين، الذين راقه فنهم، إذا طلع على نتاجهم الشعرى، وتمثله تمثلا بينا؛ بدا أثره

جليا فى المراحل الأولى من نموه الفنى ؛ إذ تقفى أثر لفيف من شعراء العربية الفحول ، وهذه قضية فطن إليها النقاد قديما وحديثا(١) ، إذ أفصحوا عن تأثره بامرىء القيس ، والنابغة ، وزهير ، وابن الدمينة ، وعمر بن أبى ربيعة ، والفرزدق ، وأبى تمام ، وابن الرومى ، والمتنبى ، وأبى فراس ، وغيرهم ، ذلك التأثر مرده إلى موهبة شعرية فذة رزقها « الرضى » وهو ذو ثقافة واسعة ، وقد عكف على نتاج الشعراء ، فهدته حاسته الفنية المرهفة إلى مواطن الجودة ومناحى الجمال فيما يقرأ ، فتمثل عيون الشعر العربى تمثلا تاما ، لذا تسللت بعض معانى السابقين وأخيلتهم ، وأساليبهم إلى قصائده ، وهذا ما يعرف عند الدكتور « محمد مصطفى هدارة » بـ « الإطار الشعرى »(٢) وهذا أمر يحمد للشاعر ؛ إذ من شأنه أن يصقل موهبته وينهض بها .

وقد ألمح الدكتور زكى مبارك - فى إشارة عابرة - إلى تأثر « الرضى » فى ضاديته هذه بأحد شعراء الحماسة أصحاب الضاديات(٣) ، فوقفت أماله ضادية « برج بن مسهر الطائى » فى عتاب عمه الذى أعرض عنه ، ومطلعها(٤) :

إلى الله أشكو من خليل أوده ثلاث خلال كلها لى غائض

وكلتا القصيدتين ضادية جاءت على تفعيلات البحر الطويل ، وكلتاهما كذلك

---

(١) أنظر : يتيمة الدهر للثعالبى ٣/١٣٣ ، ١٣٧ ، بتحقيق محى الدين عبد الحميد ط بيروت ، والشريف الرضى للدكتور إحسان عباس ص ١٨٧ - ١٩١ ط بيروت سنة ١٩٥٩ م ، الشريف الرضى - عصره - حياته - منازعه - أدبه لأديب التقى البغدادى ص٢١٨ - ٢٢٠ ط دمشق ١٩٦١ م .

(٢) أنظر : مشكلة السرقات فى النقد العربى د/ محمد مصطفى هدارة ص ١ ٢ ط ٢ بيروت ١٩٧٥ م .

(٣) انظر : عبقرية الشريف الرضى ٢/٢٥ ط بيروت بدون تاريخ .

(٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٢/٦١٦-٦٢٠ بتحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ط لجنة التأليف ١٩٦٨ م .

حافلة بآيات التضجر والتوجع من صـــد ذوى القرابات القريبة ، لكن تأثر « الرضى » بها - على الرغم من ذلك - جد محدود ، ولا يستحق الإشارة إليه .

لكنى اهتديت إلى ضادية « عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير » فى مدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ، ومطلعها(١) :

عصر الشبيبة ناضر غض فيه ينال اللين والخفض
مثل الشبيبة كالربيع إذا ماجيد فاخضرت له الأرض

وقد تأثر بها « الرضى » فى ضاديته - التى معنا - تأثرا بينا ، على الرغم من إختلاف الموضوع والوزن ، فالرضى فى قوله :

طوى الدهر أسباب الهوى عن جوانحى
وحـــل الصبا عقدا لرحايل عن نقضى

نظر فيه إلى قول عمارة :

وطوته أرض فانطوى بشوى نقض عليـــه شاحب نقض

وقول « الرضى » :

أضحى اليوم عن ظل الشبيبة مغرقى وأبدل مسود العذار بمبيض(٢)

نظر فيه إلى قول عمارة :

والشيب كالمحل الجماد له لونان مغبر ومبيض

وقول الرضى :

وكم من مقام دون مجدك قمته على زلق بين النوائب أو دحض

---

(١) انظر : الطرائف الأدبية ، جمع وتصحيح : عبد العزيز الميمنى ص٤٧-٥٤

(٢) أضحى : تحريف يذهب بالمعنى ويكسر البيت ، والكلمة فى تقديرى : ضحا أى برز .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظر فيه إلى قول عمارة :

وإذا الأمور دجت وضيق بها ذرع وخيف مزلها الدحض

وقول الرضى :

فقل للعدا عضوا الأخامص إنكم تعرفتم الأيدى على من العض

التفت فيه إلى قول عمارة :

عضوا شفاههم وأيديهم حسدا عليك وطالما عضوا

أما قول الرضى :

فى كل يوم يصبغ العار منهم رداء امرىء والعار باق على الرحض

فقد تقفى فيه أثر عمارة فى قوله :

ترك الجديد جديده سملا لا الصون يرجعه ولا الرحض

كذلك جاء قول الرضى :

يريدون أن يخفوا النواقر بيننا
وقد صاحت الأضغان فى الحدق المرض

فيه تأثر بقول عمارة :

سمح الخطا يهتز فى غيد ترنو إليه الأعين المرض

وقول الرضى :

ولسوا جميمى قبل أن يمنع الحمى إبائى أو يوبى على رعيكم حمضى

نظر فيه إلى قول عمارة :

ورأى المسيم الأرض خاشعة لاخلة نجمت ولاحمض

إلى غير ذلك من الشواهد التى تقطع بأن الشريف الرضى قد قرأ ضادية عمارة بن عقيل ، وتمثلها تمثلا جيدا ، ومن ثم التصقت معانيها وألفاظها بعقله ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فبدأ أثرها فى ضاديته ، وابن طباطبا العلوى يحض الشعراء على النظر فى نتاج سابقيهم كى تصقل مواهبهم وترفد بما ينميها ، إذ طلب إلى الشاعر أن « يديم النظر فى الأشعار (أى القديمة) لتلصق معانيها بفهمه ، وترسخ أصولها فى قلبه ، وتصير مواد لطبعه ، ويذوب لسانه بألفاظها ، فإذا جاش فكره بالشعر أدى إليه نتائج ما إستفاده مما نظر فيه من تلك الأشعار ، فكانت تلك النتيجة كسبيكة مفرغة من جميع الأصناف التى تخرجها المعادن ، وكما قد اغترف من واد مدته سيول جارفة من شعاب مختلفة ، وكطيب تركب عن أخلاط من الطيب كثيرة فيستغرب عيانه ، ويغمض مستنبطه ، ويذهب فى ذلك إلى مايحكى عن خالد ابن عبد الله القسرى ، فإنه قال : حفظنى أبى ألف خطبة ثم قال لى : تناسها ، فتناسيتها ، فلم أرد بعـــد شيئا من الكلام إلا سهل على . فكان حفظه لتلك الخطب رياضة لفهمه ،وتهذيبا لطبعه ، وتلقيما لذهنه ، ومادة لفصاحته ، وسببا لبلاغته واسنه وخطابته »(١) .

فالرضى قد نظر إلى ألفاظ ضادية عمارة ومعانيها ، وقد تصرف فيها ، إذ نقلها من المدح ومقدماته إلى العتاب ، لكنه أضفى عليها من روحه ، وصهرها فى بوتقة نفسه ، فجاءت تعبيرا صادقا عن نفس أمضها الحزن لجفوة عارضة لم يقدر الرضى على تحملها من أبيه وأخيه ، فكان هذا اللحن الشجى .

وقد نجح « الشريف الرضى » فيما عمد إليه ، إذ تسالمت خطرات نفسه إلى قلبى الأب والأخ ، فأبديا الصفح عنه ، ولين الجانب له ، والرضا عنه ، فقال قصيدة دالية يرد على أخيه عتبه ، ويحاول بها وصل مابلى من رشاء الود ، وقد رجـــح الدكتور عبد الفتاح الحلو أن « أبا أحمد (والد المرتضى والرضى) عطف على ولده الرضى ، وطلب من المرتضى أن يرد على أخيه عتبه ، وأن

---

(١) عيار الشعر لابن طباطبا ص ١٤ ، ١٥ د/ عبد العزيز المانع ، ط الرياض ١٩٨٥ م .

يكون هذا بلسان »(١) ، والأمر - فى تقديرى - لا يحتاج هذا التحمل ؛ فإن المرتضى - كما أسلفت - غضب لغضبة أبيه برابه، وإشفاقا على أخيه من طموحات تتناصر القدرات عنها ، وحين رضى الأب عن « الرضى » رضى عنه « المرتضى » أيضا ، وقد تضافرت عوامل عدة جعلت « المرتضى » يقبل بقلبه نحو أخيه يبادله ودا بود ، وتعاطفا بتعاطف ، منها : ما انطوت عليه نفسه من حب « الرضى » ، وأن الجفوة ليست سوى قشرة ظاهرة تخفى وراءها فيضا من مشاعر الحب والود . كما أن « المرتضى » من نقدة البيان الأفذاذ ، لذا وقف على مرامى « الرضى » فى ضاديته ، ومكنه حسه المرهف من الموقوف على إيحاءات كلمات وصور « الرضى » فى الضادية ، وأنها تشف عن قلب مفعم بالحب والود والصفاء ، وأنها فى الوقت نفسه نفثة مصدور ، لذا رق قلبه له وأرسل إليه داليته دون دعوة من الأب ، مادام قد استشعر صفح الأب عن « الرضى » ، وعطفه عليه ، وهذه هى دالية المرتضى(٢) :

تكشف ظلى العتب عن غرة العهد
وأعدى اقتراب الوصل منا على البعد
تجنبنى من لست عن بعض هجره صفوحا ولا فى قسوة منه بالجلد
نضته يد الإعتاب عما سخطته
كما ينتضى العضب الجراز من الغمد(٣)
وكنت على ماجره الهجر ممسكا بحبل وفاء غير منفصم العقد
أمين نواحى السر لم تسر غدرة ببالى ولم أحفل بداعية الصد
تلين على مس الإخاء مضاربى
وإن كنت فى الأقوام مستخشن الحد

---

(١) الشريف الرضى - حياته ودراسة شعره - د/ الحلو ١/٦٣ .
(٢) ديوان الشريف المرتضى ١/٢٥٥ .
(٣) المدواء كأمراء : الشدة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولما استمر البين فى عدوانه تخول عفوى أو ترقى إلى جهدى
أصاحب حسن الظن والشك مقبل
بوجهى إلى حيث استرثت(١) عرى الود

إذا اتسعت فى خطة الصد فكرتى تجلانى هم يضيق به جلدى
وإن ناكرتنى خلة من خلاله تعرض قلبى يفتديها من الحقد
تخال رجال ما رأوا الضلالة ولن تستشف الشمس بالأعين الرمد
وكم مظهر سيما الود يرونه حميدا ومايخفى بعيد من الحمد
وحوشيت أن ألقاك سبطا بظاهرى وأن كنت مطويا على باطن جعد(٢)
إذا تركت يمنى يديك تعلقى فيالبت شعرى من تمسك من بعدى؟
إيابا فلم نشرف على غاية النوى ولم ننأ كل النأى عن سنن القصد
فللدر ثر ليس يدفع حسنه وليس كما ضمته ناحية العقد
ولو لم يلاق القدح زندا بمثله كما(٣) انبعثت شهب الشرار من الزند
وقد غاض سخطانا فهل من صبابة برأيك إنى قد تصرم ماعندى ؟
هلم نعد صفو الوداد كما بدا إعادة من لم يلف عن ذاك من بد
ونغتنم الأيام وهى طوائش تؤاتى بلا قصد وتأبى بلا عمد
ومثلك أهدى أن يقاد إلى الهدى وأرشد أن ينحاز عن جهة القصد

يستهل « المرتضى » دالبته استهلالا بارعا ، إذ أعلم « الرضى » أن معتبته قد تسللت إلى لفائف القلب . فمحت مابه من أدران الصد والإعراض ، وأعادت القلب سيرته الأولى من الود الودود ، والحب الرءوم ، وفى هذا القول براعة بارعة من « المرتضى » ، فالرضى حين أزجى ضاديته السابقة كان على وجل من رد الفعل لدى أخيه ، فكان على المرتضى - وهو الناقد الفـــذ ، والأخ

(١) هنا : استرثت ، وفى ديوان الشريف الرضى ٣٢٠/١ : استنرت ، لكن الدكتور زكى مبارك رأى أن صوابها : استمرت أى تويت ، عبقرية الشريف الرضى ٢٩/٢ ، وهو الصواب عندى .
(٢) السبط نقيض الجعد ، وهما عندى كناية عن إظهار الود وستر العداء .
(٣) كما تحريف ، وصوابها : لما .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشقيق - أن يضمن مطلع قصيدته ما يمحو هواجس نفس الرضى ، ويطمئنه إلى أنه تقبل معتبته بقبول حسن ، فخبر عن عودة مياه الود إلى ما كانت عليه من تدفق ونقاء . وقد عمد إلى كلمات ذات إيحاءات يهش لها الرضى ، مثل : « ظل » وما تشعه من معانى الطمأنينة والراحة النفسية والمسرة . و « غرة » وما توحى به من الصفاء والنقاء ، و « العهد » معرفة توحى بسمو هذا العهد على كل ماعداه ، وأنه عهد يدعو إلى الكمال النفسى بالتحلى بالفضائل النفسية التى تتواءم وسموقه وقداسته . وجاء قوله : « وأعدى إقتراب الوصل مناعلى البعد » دليلا على نفس تصطرع بداخلها رغبتان بعدت بينهما الشقة ، لكن الرغبة فى رأب الصدع وتوثق عرى الود الأخوى كانت لها الغلبة فى النهاية .

ثم خبر أخاه أن القطيعة قد أدمت فؤاده ، إذ صدرت عمن تربطه به وشائج القربى القريبة ، ومن ثم كانت يد الإعتاب - بمسها الرفيق مبعث الرضا وآية الود الذى لن ينضب له معين ، إذ يجد من فيض نفس الشقيق ما يرفده بلا انقطاع ، وأنه إبان محنة الهجر ظل متمسكا بحبل الوفاء لشقيق روحه دون أن ينقض عراه مقولة واش أو فلتة لسان ، وأنه لم يضمر لأخيه سوى الحب والود اللذين تغرسهما الأخوة فى نفوس الأشقاء ، وتظل تتعهدهما بالعناية حتى يضربا بجذورهما فى أغوار القلوب .

ثم خبر أخاه أنه جاهد نفسه ، وقاوم دواعى الهجر كلما ألحت عليه يحبها بحسن الظن تارة ، وبحدب الأخوة تارة أخرى :

أصاحب حسن الظن والشك مقبل ... بوجهى إلى حيث استمرت عرى الود
إذا اتسعت فى خطة الصد فكرتى ... تجللنى هم يضيق به جلدى
وإن ناكرتنى خلة من خلاله ... تعرض قلبى يفتديها من الحقد

وهو يخبر عن قلب معمور بود « الرضى » ، على الرغم من هذا الجفاء الذى تبديه قسمات وجهه ، وفلتات لسانه ، مما أغرى بهما ثلة ممن أنطوت

نفوسهم على دخن ، إذ خيل إليهم - لمرض فى قلوبهم - أنه دليل تنافر روحى لا اجتماع معه : لكنهم جد واهمين : فكم من أناس تبدى وجوههم البشاشة ، وقلوبهم قد انطوت على حقد دفين : وهذا خلق مرذول يمقته المرتضى المقت كله :

تخال رجال مارأوا لضلالة ... ولن تستشف الشمس بالأعين الرمد
وكم مظهر سيما الوداد يرونه ... حميدا وما يخفى بعيد من الحمد
وحوشيت أن ألقاك سبطا بظاهرى ... وأن كنت مطويا على باطن جعد

وعجز البيت الأول يومىء إلى أن مظاهر حب « المرتضى » أخاه أمر بين لكل ذى عينين صحيحين ؛ ولكنه يخفى فقط على ذوى الأعين الرمد .

ثم دعا أخاه - فى لطف - إلى الإقبال عليه ، والاستمساك بحبل أخوته ، ففيها - لا فى غيرها - كل ماينشد من أسباب القوة ، فهيا إلى الود نوثق عراه ، وإلى الأخوة الصافية نتدارك منها مافات :

إذا تركت يمنى يديك تعلقى ... فياليت شعرى من تمسك من بعدى؟
إيابا فلم نشرف على غاية النوى ... ولم نتأ كل النأى عن سنن القصد

وقد حرص على ألا يترك أخاه نهبا لتأنيب الضمير ، والأسى على مافات ، فكانت تلك اللفتة الحانية :

فللدر نثر يدفع حسنه ... وليس كما ضمته ناحية العقد
ولو لم يلاق القدح زند بمثله ... لما انبعثت شهب الشرار من الزند

وفى البيتين صورتان مونقتان تكشفان عن رغبة « المرتضى » فى محو آثار الجفوة من نفس أخيه ، إذ صور كليهما - إبان الجفوة - بالدر المنثور ، وهو آنذاك لايخلو من حسن وبهاء ، لكن نظمه فى عقد يمنحه من البهاء ماليس له مفرقا ؛ وتلك حنكة من المرتضى ؛ ثم صورهما - إبان الجفوة - أيضا بزندين يحدث تلاقيهما شهب الشرار .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهو ما يفتأ يدعو أخاه إلى نبذ الجفوة، والحرص على وشائج الأخوة وما تهدى إليه من صفو الوداد :

وقد غاض سخطانا فهل من صبابة | برأيك إلى قد تصرم ما عندى
هلم نعـــد صفو الوداد كما بدا | لعادة من لم يلف عن ذلك من بد
ونغتنم الأيام وهى طوائش | تؤاتى بلا قصد وتأبى بلا عمد
ومثلك أهدى أن يعاد إلى الهدى | وأرشد أن ينحاز عن جهة القصد

والنظرة المتأنية إلى هـــذه الدالية تشى بعمق أواصر الأخوة التى تربط «المرتضى» بأخيه «الرضى»، إذ بادر إليه، يستل موجدته ويضمد جراحه، ويمد له يداً حانية تأخذه برفق إلى حيث الود الخالص، والأخوة الوارفة الظلال.

وقد مست دالية «المرتضى» شغاف قلب «الرضى»، الذى كان يتوق إلى ظلال الأخوة الصافية، يتقى بها هجير الحياة بلا رده يؤازره، ويرطب حياته بحنو الأخوة ووددها، فرد على أخيه بقوله(١) :

عجبت من الأيام إنجازها وعدى | وتقريبها ما كان منى على بعد
وإن الليالى مذ لبست رداءها | تحاذر من حدى فتزرى على جدى(٢)
ولى إن يطيل عمرى مع الدهر وقفة | تذلل أحداث الزمان لمن بعدى
وإنى لمر البأس مسترعف الظبا | وإنى لحلو الجود مستمطر الرفد(٣)
إذا بزنى مالى عطاء تركته | حميدا وطالبت القواضب بالرد
وقد عجمت منى الليالى مذربا | تخلل أنياب الأساود والأسد(٤)

---

(١) ديوان الشريف الرضى ١/٣١٧ - ٣١٩ .
(٢) أزرى عليه : عابه . الجد بالكسر : الاجتهاد فى الأمر .
(٣) الظبا جمع ظبة : حد السيف ، ومسترعف الظبا : أى يسيل الدم منها .
(٤) المذرب : الحاد من كل شىء . الأساود : أخبث الحيات وأعظمها وأنكاها .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذا خب فيه ملء حيزومه الجوى ... تو قر يخفى منه غير الذى يبدى(١)

وكنت إذا الأيام جلن بساحتى ... رجعن ولم يبلغن آخر ماعندى

ولكنها نفس كما شئت حرة ... تصول ولو فى ماضع الأسد الورد

وأعظم ما ألفيت شجوا ولوعة ... عتاب أخ فل الزمان به حدى

أقيك ماكان ماكان عن قلى ... ولكن هنات كدن يلعبن بالجلد

ولا تحسبن القلب جازت كلومه ... إلى القلب إلا بعد ماحز فى الجلد(٢)

منحتك ما عندى من الصد معلنا ... وعقد ضميرى أن أدوم على الود

ولم أغد محلول اللحاظ طلاقه ... وقلبى معقود الجنان على الحقد

سجايا عين المجد فى تلعاته ... وناقلن فى العلياء غورا إلى نجد

وقد كنت أبغى رتبة بعد رتبة ... فآنف لى من أن أفوز بها وحدى

حفاظا على القربى الرءوم وغيرة ... على الحسب الدانى وبقيا على المجد

ولم لا ؟ ونحن الراجعان من العلا ... إلى المغرس الريان والسؤدد الرغد

من القوم أشباه المكارم فيهم ... وعرق المعالى الغر والحسب العد

حسدت عليك الأجنبين محبة ... ونافست فيك الأبعدين على الود

وقد كان لذع فاتقيت شباته(٣) ... بقلب على الضراء كالحجر الصلد

تجلدت حتى لم يجد فى مغمزا ... وعدت كما عاد الجراز إلى الغمد

وها أنا عريان الجنان من التى ... تسوء ومنفوض الضلوع من الوجد

وكم سخط أضحى دليلا إلى رضا ... وكم خطأ أضحى طريقا إلى عمد

أقلب عينا فى الإخاء صحيحة ... إذا أرتمت الأعداء بالأعين الرمد

---

(١) الحيزوم : الصدر أو وسطه .

(٢) صحح الدكتور الحلو هذا البيت من نسخة أخرى للديوان : « ولا تحسبن الوجد جازت كلومه » الشريف الرضى ١/٦٤ .

(٣) الشباة : إبرة العقرب وحد كل شىء .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإنى مذعاد التودد بيننا ... تجلى الدجى عن ناظرى وورى زندى
وعاد زمانى بعد ما غاض حسنه ... أنيقا كبرد العصب أو زمن الورد(١)
وكنت سليب الكف من كل ثروة ... فأصبحت من نيل الأمانى على وعد
وفارقنى ضيق الصدر عنك إلى الرحا ... كما نشط المأسور من حلق القد(٢)
وقد ضمنى محض الصفا وصدقه ... إليك كما ضمت ذراع إلى عضد
وكنت على ما بيننا من غيابة ... أعدك حدى حين أسطو على ضدى

ها هو ذا «الرضى» - ذو النفس الجموح، والعين الطموح - يهش لدالية «المرتضى» وتنفرج أسارير قلبه، ويتلقاها بحفاوة بالغة، ويجنح إلى السلم، بعد أن كاد يصيخ إلى دواعى الهجر والقلى ومن ثم صوتت قيثارة شعره هذه المعزوفة التى تهز أوتار القلوب بما أودعها من شعور إنسانى رقراق.

يبدى «الرضى» فى داليته هذه مسرة بالغة بما أبداه «المرتضى» من حرص على مودته، وصفح عنه، وإقبال عليه، لذا ابتدأها بالتعجب من الدهر الذى حقق له إحدى رغائبه، بعد أن تعقبه طويلا، وباعد بينه وبين أمانيه!، هذا يشف عما انطوت عليه نفس «الرضى» من رغبة عارمة فى تواصل الود بينه وبين أخيه، وسعادته بإقباله عليه، لذا يعد استهلالا بارعا منه.

ثم عمد إلى الفخر بنفسه وبما يتحلى به من خلال فى الأبيات من ٢ — ٩، وكأنى به يغمز شانئيه الذين أملوا همود همته، وتثلم حده، وعجزه عن الصيال والنزال، فخبرهم عن مضاء همته، وتوقد عزيمته، وقدرته على مصاولة الزمان والنيل منه، وأنه مايزال طامحا إلى أسمى الغايات.

---

(١) العصب: برود يمنية يعصب غزلها ويشد ثم يصبغ وينسج فيأتى موشيا (اللسان: عصب).

(٢) القد: القيد، يقال أسره بالقد: بالسير من الجلد غير المدبوغ (أساس البلاغة: قدد).

ثم جاء بيته العاشر :

وأعظم ما ألقيت شجوا ولوعة عتاب أخ فل الزمان به حدى

مفصحا عن حزن ممض ملك عليه أقطار نفسه ، لما اعترى علاقته بأخيه من فتور دعا إلى المعاتبة ، وجاء قوله : « فل الزمان به حدى » دليلا على ما أخفته الجفوة به من ضعف واختلال ، على الرغم من تجلده .

وهو معنى بالإفصاح لأخيه عن سلامة صدره ، وحفاظه على الود الخالص ، وأنه كان إبان الجفوة - كالعهد به دوما - طاهر الغيب ، لم يصدر عن قلى ، ولكنها أمور أضجرته دون أن تعكر صفو الود ودون أن ينال من وثاقة روابط الإخاء . وكم كان فطنا حاذقا حين قال :

منحتك ما عندى من الصد معلنا وعقد ضميرى أن أدوم على الود

ولم أغد محلول اللحاظ طلاقة وقلبي معقود الجنان على الحقد

إذ خبر أخاه أن ما أبداه عن الصد والإعراض عنه ، منبت الصلة بما هو مستكن فى أغوار النفس من مودة صافية ، وحب مكين والرضى فى بيته الأول قد نظر إلى قول شاعر سبقه(١) .

إذا رأيت ازورار من أخى ثقة ضاقت على برحب الأرض أوطانى

فإن صددت بوجهى كى أكافيه فالعين غضبى وقلبى غير غضبان

لكنه أجاد عن الأول ، إذ أفصح عن ود مستكين فى الأعماق ، بينما اكتفى الأول بنفى الغضب عن قلبه .

هذا القول قد يوهم أن « الرضى » من ذوى الوجهين ، لذا عمدا إلى إزالة ما قد يتوهم من ذلك ، إذ نفى عن نفسه هذا الوهم ، مفصحا عن أن هذا الخلق لا يتفق وما نعم به من المحتد الزكى ، والعرق الطيب ، والمنشأ المحمود :

سجايا رعين المجد فى تلعاته وناقلن فى العلياء غورا إلى نجد

(١) ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ١/١٦١ ط مكتبة القدسى بدون تاريخ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد فرض عليه هذا المحتد الزكى أن يسعى إلى العلا ، لكنه لم يسع لنفسه حسب ، بل لنفسه وأخيه ، على الرغم مما طفا على سطح علاقاتهما من فتور ظاهرى :

وقد كنت أبغى رتبة بعد رتبة ... فآنف من أن أفوز بها وحدى
حفاظا على القربى الرءوم وغيرة ... على الحسب الدانى وبقايا على المجد
ولم لا ؟ ونحن الراجحان من العلا ... إلى المغرس الريان والسؤدد الرغد
من القوم أشباه المكارم فيهم ... وعرق المعالى الغر والحب العد

لكن لذع الأسى مازال يعاوده من حين إلى آخر ، فها هو ذا يحدث عن القطيعة وما أنزلته بساحته من أشجان مؤرقة ، لكنها انجلت وانجلى معها كل مايسوء كلا الشقيقين من الآخر ، وذلك يكشف عن عمق ومتانة أواصر الأخوة بينهما :

حسدت عليك الأجنبين محبة ... ونافست فيك الأبعدين على الود
وقد كان لذع ، فاتقيت شباته ... بقلب على الضراء كالحجر الصلد
تجلدت حتى لم يجد فى مغمزا ... وعدت كما عاد الجراز إلى الغمد
وها أنا عريان الجنان من التى ... تسوء ومنقوض الضلوع من الوجد
وكم سخط أضحى دليلا إلى رضا ... وكم خطأ أضحى طريقا إلى عمد
أقلب عينا فى الإخاء صحيحة ... إذا ارتمت الأعداء بالأعين الرمد

ثم أفصح لأخيه عما أنزلته عودة الوداد بساحته من مسرات ومباهج ، نقلته من حال إلى حال أخرى ، وشتان مابين الحالين !! :

وإنى مذ عاد التودد بيننا ... تجلى الدجى عن ناظرى وورى زندى
وعاد زمانى بعدما غاص حسنه ... أنيقا كبرد العصب أو زمن الورد
وكنت سليب الكف من كل ثروة ... فأصبحت من نيل الأمانى على وعد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفارقت ضيق الصدر عنك إلى الرضا
كما نشط المأسور من حلق القـــد

وقد ضمنى محض الوفاء وصدقه إليك كما ضمت ذراع إلى عضد
وكنت على ما بيننا من عيابة أعدك حدى حين أسطو على ضدى

وهى خاتمة جيدة تحدث - فى صدق وإيجاز - عن حالى « الرضى » إبان الجفوة . وبعد عودة الود إلى سابق عهده قبلها ، وكلماتها محمـــلة بفيض من الإشعاعات والإيحاءات التى لا تقف عند حد الدلالات المعجمية حسب ، فقوله : « غاض حسنه » يوحى بما لزمان الود من حسن تطرب له النفس ، ويهش له القلب ، ويوحى - فى الوقت نفسه - بما لزمان القطيعة من قبح تشناه العين ، ويلفظه القلب ، وفى الفعل « غاض » لفحة نفسية تحدث عن قلب خلفت به القطيعة ندوبا موجعة ، ثم جاء قوله : « أنيقا » موحيا بمعانى الحسن والمعجب والبهجة المبهجة ، والرضا الغامر ، مما عفى على آثار الندوب ، وضمد الجراح ؛ والبيت الثالث كله محمل بحشد من المعانى النفسية التى تعبر عن نفس « الرضى » أصدق تعبير ، فكلمات صدره : كنت ، وسليب ؛ وكل ، توحى بحسرة تمكنت من نفس « الرضى » وجاء عجزه مشعرا بالبهجة والأنس بعودة الوداد وتقلص أسباب الجفاء .

وفى أبيات الخاتمة صور شعرية جاءت صدى لمشاعر « الرضى » وهو يودع - إلى غير رجعة - وما حملته إليه من أشجان موجعة ، ويستقبل حياة جديدة ملء إهابها الود الودود ، والاطمئنان ، والبشر والتفاؤل ، نلمس ذلك كله فى قوله :

وعاد زمانى بعد ما ماض حسنه أنيقا كبرد العصب أو زمن الورد

وفى قوله :

وفارقت ضيق الصدر عنك إلى الرضا
كما نشط المأسور من حاق القد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولسنا نقصد مشاعر « الرضى » في هذا البيت من شرحه ، إلا أننا نلحظ على معاناة أسير ضيق عليه القيد ، فتكالب عليه الأسر والقيد ، فيصبح الدنيا أمام عينيه مظلمة ضيقة على رحابها ، ثم فقدت إنسانيته وبعدت عنه فيه ، كيف لا يكون سرّه أخاك !! .

وكأني بالرضى يقول لنا : كنت ـ أيام الجفوة ـ سيء الحال إذ فت في عضدي ، وأنهكت قواي ، وغشيت حياتي ظلمة قاتمة بعد ما حلت دار الأخوة الذي أحدق على الحياة البهجة والمسرة من جديد .

أما قوله :

وقد ضمني عطف الوفاء وصدقه   إليك كما ضمت ذراع إلى عضد

فقد تضمن صورة موحية بعطف « الرضى » بعد الجفاء ، وتوسيعه أخيه عليه وتأمل إيحاءات الفعل « ضم » الذي كان مرهفاً ، تجد معنى الحب الموموم ، والحب الشفيق ، والمودة الخالصة .

وكم كان لبقاً حين ختم القصيدة بقوله :

وكنت على ما بيننا من عتابة   أعدك حدي حين أسطو على ضدي

إذ خبر أخاه ـ على الرغم مما كان بينهما من جفوة عارضة ـ كان يصحبه حين يناوش أعداءه وينازلهم ، وكأني به يقول للرضي : أنت ـ في حالي القرب والبعد ـ حدي ، فلا تكلم هذا الحد بالجفوة مرة أخرى ، وفي هذا القول من التلطف والاستمالة ما فيه ، إذ أبدى حرصه على أخيه ، ورغبته بمودته ، وحاجته إليه واعتماده عليه .

ومن يتأمل حصاد الجفوة بين الشقيقين يقف على أمور منها :

أولا : تبدي معاتباتهما معا قوة أواصر الأخوة بينهما ، وحرص على مودة الآخر ، ورغبته الملحة في تواصل هذه المودة ، والسمو بها إلى آفاق إنسانية رفيعة ، تتفق وما يربطهما من وشائج الأخوة ، وتتفق أيضا وما يرجعان إليه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من نقائب ميمونة ، وضرائب مأمونة ؛ وقد تجلى ذلك فى مظاهر عدة ، منها :

(ا) أنهما لم يتركا الجفوة تتمكن من قلبيهما ؛ فإن إطالة الجفوة يزيد لهب الموجدة ، ويجعل الطباع تحتد ؛ لذا بادر « الرضى » إلى عتاب « المرتضى » بضاديته التى وقفنا معها ، وقد مست - بما أودعها من نبض قلبه المكلوم - شغاف قلب « المرتضى » ، لذا بادر هو الآخر إلى العتاب الرقيق ، يمتطى صهوته إلى قلب « الرضى » ، مفصحا عن رضاه عن أخيه ، وحرصه عليه ، وتشبثه بمودته ، فكان داليته :

تكشف ظل العتب عن غرة
وأعدى إقتراب الوصل منا على البعد

بما تحمل من مشاعر أخوية فياضة بردا وسلاما على قلب « الرضى » الذى جنح إلى السلم ، وأبدى البشاشة له ، وأفصح عن مسرته به ، فى داليته التى جاءت رداً على دالته « المرتضى » .

(ب) عمد كلاهما إلى العتاب الرقيق الذى يحمل فى طياته تذكيرا متكررا بما تتطلبه الأخوة من لين الجانب ، والصفح عن المسىء ، والبعد عن عوراء الكلام ، والجنوح إلى السلم ، والإبقاء على المودات ، والعمل على السمو بها ، والعتاب الرقيق من شأنه أن يحرك المودة ، ويزجيها إلى مايجب أن تكون عليه ، « فقليل العتاب يؤكد المودة ، ويحرك النفس ، ويعيد الود المفقود ، أما الكثير منه فيوغر الصدر ، ويميت العاطفة عند المعاتب - بفتح التاء - على نحو مافعل المتنبى مع سيف الدولة ، حين خرج الموضوع عن دائرة العتاب إلى دائرة السخط والرغبة فى الانتصاف(١) .

وقد كان الشريف الرضى يعنف أحيانا فى ضاديته - لكنه سرعان

---

(١) دراسات فى النص الشعرى - العصر العباسى د/ عبده بدوى ص٢٢٢ مطبعة قاصد خير ١٩٧٧ م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يكبح جماح نفسه ، ويرق لأخيه رقه تستميله إليه ، وتستل موجدته ، لذا آتى عتابه ثماره المرجوة ، إذ ثاب كلاهما إلى رشده ، وعاد إلى رحاب الصفاء النفسى ، والود الخالص ، يمتحان من ورده العذب ، ومعينه الفياض ، ما يرطب حياتهما بأنس الود الأخوى .

ومن ثم لم ينحدرا فى معاتباتهما إلى الدرك الذى انحدر إليه « يزيد بن الحكم الثقفى - على سبيل المثال - فى عتاب أخيه « عبد ربه بن الحكم »(١) فى قصيدته التى ينبىء مطلعها بعلائق واهية ، ووشائج ممزقة ، ومن ثم كان الفحش فى القول منحاه فى عتاب أخيه ، إذ يقول(٢) :

تكاشرنى كرها كأنك ناصح ... وعينك تبدى أن صدرك لى دوى(٣)
لسانك أرى وغيبك علقم ... وشرك مبسوط وخيرك ملتوى(٤)

إلى أن يقول :

تملأت من غيظ على فلم يزل ... بك الغيظ حتى كدت بالغيظ تنشوى
وما برحت نفسى حسود حبستها ... تذيبك حتى قيل : هل أنت مكتوى ؟
وقال النطاسيون : إنك مشعر ... سلالا ألا بل أنت من حسد جوى(٥)
جمعت وفحشا غيبة ونميمة ... ثلاث خلال لست عنهما بمرعوى

---

(١) ذهب بعض الباحثين إلى أنه قالها فى عتاب ابن عمه . انظر : شعراء أمويون ٣/٢٧٤ ، د/ نورى حمودى القيسى ط العراق ١٩٨٢ م .

(٢) لباب الآداب لأسامة بن منقذ ص٣٩٧ - ٣٩٩ ط دار الكتب العلمية - بيروت .

(٣) يقال : كاشر الرجل الرجل إذا كشر كل واحد منهما لصاحبه ، هو أن يبدى له أسنانه عند التبسم . دوى : به داء . الأمالى الشجرية ١/١٧٧ ، ١٧٨ ط دار المعرفة - بيروت .

(٤) الأرى : العسل ، والعلقم : الحنظل الأخضر .

(٥) مشعر : هى فى لباب الآداب : مسعر ، لكنها فى أمالى ابن الشجرى وغيرها مشعر ، وهو ما أميل إليه ، ومشعر أى ملبس شعارا من سلال ، والشعار ما ولى الجسد من الثياب ، والسلال : السل ، الأمالى الشجرية ١/١٧٩ .

(ج) انتقى كلاهما كلمات تشف عن وثاقة عرى الأخوة بينهما ، وتوحى بما استكن فى أغوار قلبيهما من مودة صافية ، وحب مكين ، وتنبىء فى الوقت نفسه بثقل وطأة الجفوة على نفسيهما ، ومرد ذلك - فى تقديرى - إلى لحمة الأخوة ووشائجها ، وإلى ما أشر به كلاهما فى قلبه من مودة الآخر منذ الطفولة المبكرة .

ثانياً : تكشف هذه القصائد الثلاث عن سطحية الخلاف بين الشريفين ، وأنه خلاف لا يضرب بجذوره فى أعماق قلبيهما ، ومن ثم استل برقيق العتاب ، وآب كلا الأخوين إلى حياة صافية يظللها الحب الأخوى ، ليبقى الود بينهما معلما بارزا فى حياتهما . يعرفه القاصى والدانى ، وقد أشاد بذلك « أبو العلاء المعرى » فى مرثية التى رثى بها أباهما ، إذ قال فيها عن المرتضى والرضى(١) .

أبقيت فينا كوكبين سناهما ... فى الصبح والظلماء ليس بخاف
متأنقين وفى المكارم أرتعا ... متألقين بسؤدد وعفاف
ساوى الرضى المرتضى وتقاسما ... خطط العلا بتناصف وتصادف

ثالثاً : تبدى معاتبات الشريفين تفاوتا بيناً بين منازعهما النفسية إذ وجدنا « المرتضى » هادئا وقورا ، لم يجنح إلى الغضب ولم يعنف مع أخيه ، ولم يدع لعاطفته العنان ، وإنما كبحها بلجام العقل ، بينما وجدنا « الرضى » فى بداية الجفوة غاضبا ساخطا ؛ إذ تشف ضاديته عن رجل يخاشن أخاه ، ويكاد غضبه يغلب حلمه .

كذلك فرج « الرضى » عتابه بالفخر بأورمته ، وبنفسه وشجاعته ، وبهمته ومضاء عزمه ، بينما خلت دالية « المرضى » من الفخر . كذلك خاشن « الرضى » أعداءه وحساده ومن وشوابه ، فى كلتا قصيدتيه ، بينما جاءت دالية « المرتضى » خلوا من هذا الجانب أيضا .

---

(١) شروح سقط الزند ٣/١٢٩٧ - ١٣٠١ ط القاهرة - الدار القومية للطباعة والنشر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومرد ذلك إلى ما بينهما من فروق فى الشخصية ومطامح النفس ، فالمرتضى اكتفى من حظه فى الدنيا بالعلم يشغل نفسه به ، وبالزهد يروض نفسه عليه ، ونفى نفسه من مشاغل الحياة ومطامعها التى تندق لها أعناق الرجال ، وصرف نفسه جملة عن بهرجة السلطان ، ومقامات الحكام . أما الشريف الرضى فكان ضيق النفس كثير الطموح ، بعيد الطماعية ، وطالما حدثته نفسه أن يكون الخليفة القائم على أمر المسلمين لأنه يرى نفسه أحق بالخلافة من الجالسين على عرشها(١).

ورجل هذه حاله يكثر اعتداده بنفسه ، ومباهاته بحسبه ، ومن ثم يكثر شانئوه الذين يناصبونه العداء .

رابعاً : تبدى معاتباتهما أن الحالة النفسية التى تملكت «الرضى» غير الحالة النفسية التى تملكت «المرتضى» ، على الرغم من أن كليهما محزون ، لتلك الجفوة التى ليس لها ما يبررها فى حياة شقيقين نعما بمجتد زكى ، وعلقا بحبائل المروءة ، وعرفا الألفة والمودة والصفاء منذ نعومة الأظافر . إذ تبدو نغمة الحزن لدى «الرضى» أقوى منها لدى «المرتضى» ، تشف عن ذلك كلمات كليهما وصورة الشعرية . ومرد ذلك - فى تقديرى - إلى نظرة «الرضى» إلى أخيه الأكبر بمجلة وإحترام ، وإلى إحساسه بأن موقف أخيه منه ظلم دونه كل ظلم ، لأنه لم يرتكب جرما ، ولم يغبر حسبا ، ولم يدنس نسبا ، لذا كانت أحزانه مضة ، وتملا ما بين جوانحه .

أما «المرتضى» فقد وجد أخاه يخاشنه ويتوعده فى ضاديته ، ومن ثم خشى أن يتفلت من عقل الأخوة ووشائجها ، وساءه كذلك - وهو الشفيق الحدب - ما أبداه أخوه فى ضاديته أيضا من ضروب الأسى الممض ، ولذا كان حزنه ، وشتان بين بواعث الحزن لدى كلا الشاعرين ومن ثم وجدنا معاتبات «الرضى» - والضادية على وجه الخصوص - تقطر مرارة ، وتشف عن نفس انطوت على مستكنات تلذع الأفئدة ، وتفتت الأكباد .

خامساً : خلصت القصائد الثلاث - التى تمثل حصاد الجفوة بين الشقيقين -

---

(١) الشريف الرضى لمحمد عبد الغنى حسن ص ٣٢ .

لموضوع واحد ، إنه معاتبة الشقيق ، والرغبة فى استلال موجدته، وهو موضوع أهم كلا الشقيقين وأضجره ، وملك عليه ما بين جوانحه ، ومن ثم لم يعد لدى كليهما وقت ينفقه فى مطلع تقليدى ، وليس فى نفس كليهما مكان لشوق المحبيب أو ما إلى ذلك ، لذا تمثلت فى القصائد الثلاث وحدة الموضوع . وتمثلت فيها فى الوقت نفسه الوحدة النفسية ، لكنها جاءت خلوا من الوحدة العضوية ، ومرد ذلك إلى حالة الضيق والضجر التى تسيطر على كلا الشاعرين ، ومن ثم رأينا كليهما غير معنى بترتيب خواطره؛ إذ ليس فى مكنته أن ينتظر بعض الوقت ليفكر فى منهج قصيدته تفكيرا طويلا ، وفى الأثر الذى يريد أن يحدثه فى سامعيه ، وفى الأجزاء التى تتدرج فى إحداث هذا الأثر بحيث تتمشى مع بنية القصيدة بوصفها وحدة حية .

سادساً : تبدى النظرة المتأنية إلى حصاد الجفوة لدى كلا الشاعرين سموق شاعرية « الرضى » عنها لدى « المرتضى » ، وتلك ظاهرة عامة فى نتاجها الشعرى كله ، وليست وقفا على شعر هذه الظاهرة حسب ، « فالمرتضى دون أخيه الرضى ـ لاشك فى ذلك ـ فى ميدان الشعر ، نعم إنه لن يقل عنه جودة لغة ، وصحة لفظ ، بل قد يفوقه فى هذا الباب ، ولكن الروح الشعرى عند الرضى أرق منه عند أخيه »(١) .

سابعاً : جاءت الضادية والداليتان على وزن البحر الطويل ، مما دفعنى إلى تأمل هذه الظاهرة ، بغية تضوىء جوانبها ، والوقوف على أبعادها، فبحثت أولا عن معاتبات الأشقاء ، ثم بحثت فن العتاب كـكل ، فوجدت ما اهتديت إليه من معاتبات الأشقاء جاء على وزن البحر نفسه .

فهاهو ذا معن بن أوس المزنى ، يورد لاميته الشهيرة فى عتاب أخيه « حبيب » على أوزان البحر نفسه ، ومطلعها (٢) :

---

(١) طيف الخيال للشريف المرتضى ، مقدمة حسن كامل الصيرفى ص ٣٠ ط عيسى الحلبى ١٩٦٢ م .

(٢) لباب الآداب لأسامة بن منقذ ص ٣٩٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لعمرك ما أدرى وإنى لأوجل على أبناء تعـــدو المنية أول

وعلى أوزان البحر نفسه جاءت ميميته التى مطلعها(١) :

وزى رحم قلمت أظفار ضغنه بحلمى عنه وهو ليس له حلم

كذلك جاءت واوية « يزيد بن الحكم الثقفى » فى عتاب أخيه « عبد ربه ابن الحكم » على أوزان البحر نفسه ، ومطلعها(٢):

تكاشرنى كرها كأنك ناصح وعينك تبدى أن صدرك لى دوى

لسانك لى أرى وغيبك علقم وشرك مبسوط وخيرك ملتوى

ثم وقفت أمام الفصول التى أفردت لفن العتاب فى : حماسة البحترى ، وديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ، ولباب الآداب لأسامة بن منقذ ، فوجدت جل ما قيل فى هذا الغرض على وزن البحر الطويل(٣) .

هذه النتيجة تثير تساؤلا ملحا : هل هناك صلة بين عاطفة الشاعر وما يتخيره من أوزان لشعره؟ إنى - من خلال ما وصلت إليه فى شعر العتاب عامة، وفى عتاب الأشقاء على وجه الخصوص - أرجح أن الشاعر كان يعمد إلى الأوزان التى تلائم عاطفته . فالعتاب موضوع جاد جليل ، والمعانى الجادة - كما يرى ابن العميد - لا تؤدى إلا بنفس طويل ، ولا تتلاءم إلا مع الأعاريض الطويلة (٤) ، ومن ثم عمد الشعراء فى معاتباتهم إلى البحر الطويل؛ إذ وجدوه - لكثرة مقاطعة - يتسع لما تجيش به صدورهم .

---

(١) ذاته ص ٤٠١ .

(٢) شعراء أمويون لنورى حمودى القيسى ٣/٢٧٤ ط العراق ١٩٨٢ .

(٣) انظر : حماسة البحترى ص٢٣٨ - ٢٤١ ط بيروت سنة ١٩٦٩م ، وديوان المعانى ١/١٥٧ - ١٦٩ نشر مكتبة القدسى ، ولبـــاب الآداب لأسامة بن منقـذ ص ٣٨١ - ٤٠٥ ط بيروت ١٩٨٠ .

(٤) انظر : دراسات فى النص الشعرى - العصر العباسى - د/ عبـــده بدوى ص ١٢٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثبت باهم المصادر والمراجع

١ ـ الأمالى الشجرية ج ١ ط دار المعرفة ، بيروت .

٢ ـ حماسة البحترى ط بيروت ١٩٦٩ م .

٣ ـ دراسات فى النص الشعرى العباسى والعصر ، د/ عبده بدوى ، مطبعة قاصد خير سنة ١٩٧٧ م .

٤ ـ ديوان الشريف الرضى ، ط دار صادر بيروت .

٥ ـ ديوان الشريف المرتضى ، تحقيق : رشيد الصفار، ط عيسى الحلبى ١٩٥٨ م .

٦ ـ ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ، ج ١ ، ط مكتبة القدسى ، بدون تاريخ .

٧ ـ شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ، ج ٢ بتحقيق أحمد أمين وعبدالسلام هارون ط لجنة التأليف ١٩٦٨ م .

٨ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ج ١ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط عيسى الحلبى ، ط ١ .

٩ ـ شروح سقط الزند ج ٣ ط الدار القومية للطباعة والنشر .

١٠ ـ الشريف الرضى د/ إحسان عباس ، ط بيروت ١٩٥٩ م.

١١ ـ الشريف الرضى ، عصره ، حياته ، منازعه ، أدبه ، الأديب التقى البغدادى ، ط دمشق ١٩٦١ م .

١٢ ـ الشريف الرضى ، حياته ودراسة شعره ، د/ عبد الفتاح الحلو ، ط دار هجر ١٩٨٦ م .

١٣ ـ الشريف الرضى ، لمحمد عبد الغنى حسن (سلسلة نوابغ الفكر) ط دار المعارف ١٩٧٠ م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٤ ـ شعراء أمويون د/ نورى حمودى القيسى ج٣ ط العراق ١٩٨٢ م.
١٥ ـ الصداقة والصديق لأبى حيان التوحيدى ، شرح وتعليق : على متولى صلاح ، ط الآداب ١٩٧٢ م .
١٦ ـ الطرائف الأدبية ، جمع وتحقيق : عبد العزيز الميمنى ، ط بيروت ، بدون تاريخ .
١٧ ـ طيف الخيال للشريف المرتضى ، تحقيق : حسن كامل الصيرفى ، ط عيسى الحلبى ١٩٨٢ م .
١٨ ـ عبقرية الشريف الرضى د/ زكى مبارك ج٢ ، ط حجازى .
١٩ ـ عيار الشعر لابن طباطبا تحقيق د/ عبد العزيز المانع ، ط الرياض ١٩٨٥ م .
٢٠ ـ لباب الآداب لأسامة بن منقذ ط دار الكتب العلمية ، بيروت .
٢١ ـ مشكلة السرقات فى النقد العربى د/ محمد مصطفى هدارة ، ط بيروت ١٩٧٥ م .
٢٢ ـ المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزى ج٧ ط حيدر أباد .
٢٣ ـ قيمة الدهر للثعالبى ج٣ تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط بيروت .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محتويات العـــدد

الموضوع	الصفحة
• مقدمة أ. د/ محمود محمد لبده عميد الكلية	أبجدى
• المعركة بين الرافعى والعقاد أ. د/ محمود محمد لبده عميد الكلية	١
• آراء النحويين فى رافع الفعل المضارع د/ محمد أبو المكارم قنديل وكيل الكلية	٣٥
• التفسير النفسى للإبداع الأدبى ومحمد خلف الله أحمد د/ محمد جاد البنا	٦٣
• من صحائف الفصاحة والبلاغة د/ الوصيف هلال الوصيف	١٠٥
• نهر النيل فى شعر شوقى د/ مصطفى مصطفى البسطويسى عطا	١٦٥
• باب إجراء الوصل مجرى الوقف د/ أبو المجد على عماره	٢٠٣
• ولاية الإيجاب والقبول وصورهما بين الشريعة والقانون د/ سعد الدين مسعد هلالى	٢٣٩
• معاتبات الشريفين المرتضى والرضى د/ عبد الرحمن هيبة	٢٧٥

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٩/٦٣٢٧

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner